

نص اللاّجئ

ذكريات القبيلة الضائعة

محمد الأسـعد

رواية غير خيالية

مفاجأتان في هذا النص الذي تلقيته ممتنّاً: أولاهما الشجاعة المريرة، وثانيتهما إنني مع عائلتي كنا نسكن "التوراة" في البصرة القديمة. الفقراء إذن متساوون، سواء جاؤا من جنوبي البصرة أو من شمالي فلسطين.

سعدي يوسف

I

لم يكتب أحد قصّتهم حتى هذه اللحظة، هؤلاء الذين نستطيع اعتبارهم قبيلة فلسطينية مفقودة تم سبيها وإرسالها بعيداً عن "الكرمل" و "مرج بن عامر" وتوزيعها على مدارس يهودية واسعة في "بغداد" و "البصرة"، مدارسَ أعطاها الجميع، وكأنما بتوافقٍ عجيب، اسمَ "التوراة". فكانت هناك توراة ُلاجئين أولى.. وثانية.. وثالثة.. وهكذا. وليستيقظ أطفالُهم فيما بعد، فإذا هم من "سكان التوراة".

لايَعرف أحد عددهم، فهم غير مدرجين في سجلاتِ "الاونروا" أو في ذاكرةِ الجامعة العربية، أو في ذاكرةِ أيّ سجلٍ في العالم. إنهم في "التوراة" فقط. وليس الأمرُ مجازاً، فهذه المباني التي كانت مدارسَ يهودية كبيرة حملت هذا الاسم نفسه.. ولا أحد يعرف كيف ولماذا.

عددهم لا يردُ ضمن تعدادِ اللاجئين الفلسطينيين في أقطارِ اللجوء. فهذه الأقطار هي لبنان وسورية والأردن. إنهم موجودون فقط في سجلاتٍ رثّةٍ متآكلة الأوراقِ لدائرةٍ اسمها "دائرة شؤون اللاجئين" التي تشرف على شؤون العجزة، وهي دائرة تابعة لوزارة الشؤون العراقية. ولم تستبدل الحكومة العراقية لافتة "شؤون الفلسطينيين" بلافتةِ "شؤون اللاجئين" إلاّ في السنوات الأخيرة. أما قبل ذلك، في الخمسينات والستينات، ومنذ أن حُشروا في شاحناتِ الجيش العراقي المنسحب من منطقة "جنين" في العام 1949 وأُرسلوا إلى العراق، فقد أُلصقت بهم صفة اللاجئين "المجرَّدة".

في المؤتمر الذي عقده المشرفون على شؤون الفلسطينيين في الدول العربية في أوائل يناير 1996، ضمّ المؤتمرُ مندوبين من سورية ولبنان ومصر والأردن وفلسطين والجامعة العربية، ولم يَرد ذكرٌ لمندوبٍ من العراق. وهذه ليست المرة الفريدة بالطبع، فكل الإحصاءات التي تُنشر عادةً عن عدد الفلسطينيين، بما فيها إحصاءات منظمة التحرير، لا يَرد فيها ذكرُ الفلسطينيين في العراق. ولا يَعرف الكثير من الباحثين الفلسطينيين أن هناك وجودا لفلسطينيين في العراق منذ السبي الأول. وحتى مراكز البحوث العربية، لا يبدو أنها تعرف شيئا عن هذا الأمر. ففي مقالٍ تحت عنوان "قضية اللاجئين الفلسطينيين: مبادئ

ممكنة للحل الوسط على رغم تناقص المواقف" (الحياة - 1996/1/20) يقول رئيس برنامج البحوث الإسرائيلية في مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية السيد "عبد العليم محمد":

"إن الأمرَ يتطلب بالضرورة القيامَ ببحثِ حال اللاجئين في الأردن وسورية ولبنان بهدف استقصاء حقيقة أوضاعهم المعاشة والقانونية ومدى اندماجهم أو هامشيتهم في مجتمعات اللجوء.. وإعداد قائمةٍ أو قوائم بالفئات والشرائح المؤهلة أكثر من غيرها للعودة أو التعويض.. الخ"

والواضح من هذه السطور أن الكاتب خالي الذهن تماما من وجود الفلسطينيين اللاجئين إلي العراق منذ العام 1948. إنهم قبيلةٌ ضائعة بكل معنى الكلمة سقطت من السجلات الرسمية والذاكرة معا، وتعرّضت كما سنرى للمحو لسانياً وثقافياً وككائناتٍ إنسانية. ومع أن مجموع الشعب الفلسطيني في أماكن اللجوء الأخرى سقط كتجربةٍ إنسانية ويتساقط من ذاكرة الثقافة الفلسطينية نفسها في تناسبٍ عكسي مع ارتفاعِ أو انخفاضِ مناورات القيادة السياسية، إلاّ أن هذه القبيلة كان نصيبها أشدّ قسوة. وقد تساءلتُ دائماً عن سبب هذا التجاهل، فلم أجد جواباً. وكنتُ، وأنا أحد الناجين من أفراد هذه القبيلة، كلما رويتُ طرفاً من المتاهة التي ضاعت فيها، أجدُ أمامي أفواهاً فاغرة وعيوناً مندهشة تسمع لأول مرة حديث القبيلة المنقرضة وتجاربها.

الأمرُ بالطبع ليس أمرَ المناورات السياسية ولا الشتاتِ المؤلم الذى فُرض على الفلسطينيين ومنعهم من التنقل والتجوال فقط (لم يحصل الفلسطينيون في العراق على حق السفر بوثيقة سفر إلاّ بعد العام 1958) بل هو أمرُ ثقافةٍ لم تنظر إلي الفلسطيني إلاّ كأداة في خدمة "السياسي" وأسقطت كل جوانب تجربته "الإنسانية" من حسابها.

II

في أوائل العام 1948، وكانت قد مرّت بضعةُ شهور على سقوط "حيفا"، أكملتْ عصابات "الهاغاناه" اجتياحَ قرى الكرمل وتدميرها. وتوزّع أهالي هذه القرى، ومنها عين حوض وإجزم وعين غزال وأم الزينات وأم الفحم على بقية القرى الفلسطينية متنقلين من قريةٍ إلى قريةٍ، وصولا إلى فلسطين الشرقية، وكان نصيب معظمهم التدفق على "جنين" وما يحيط بها.

حكايةُ هؤلاء القرويين هي حكاية فلسطين كلها، حكايةُ مجتمع مجزًّأ لا تنظمه دولة، ولا تقوم بشؤونه أبسطُ البلديات. وكان سقوطُ هذا المجتمع في براثن احتلال دولي منظّمٍ يبني دولته شيئاً فشيئاً أمراً منطقيا، ولا يحتاج تفسيره إلى أطنانٍ من الحبر الذي سُفح بحثاً عن الذين خانوا والذين باعوا أو الجيوش المسلوبة الإرادة، وأسطورة الافتقار إلى السلاح، وكل هذا الهراء. إن مجتمعاً قروياً مثل المجتمع الفلسطيني لم يعرف طعماً للدولة منذ أقدم عصوره، وعاش في تجمعاتٍ ضئيلة بين المرتفعات والهضاب، ضيقةٍ تربطها إما روابط القرية أو العشيرة، كان يحمل مقوماتِ سقوطه أمام هذه الهجمة الدولية أو الحرب العالمية التي تخاض على رقعة ضيقة على حد تعبير الكاتب الأميركي ستيفن جرين. فتساقطت قراهُ قريةً قريةً ، ومنفردةً لا تكاد أحداها تشعر بالأخرى. والمفارقة هي أن من سيعرّفني بمصير "خربة خزعة" أو قرية "الدوايمة" التي أحرق البلغار والبولونيون والروس أهلها في مغارةٍ كبيرة ليس ثقافتي الفلسطينية التي تجهل كل هذا، بل كتّابٌ إسرائيليون. ومن سيعرّفني في ما بعد بجمال الفدائي الفلسطيني ليس الشاعر والروائي الفلسطيني، بل الفرنسي "جان جينيه" الذى قضى أربع ساعات في مخيم شاتيلا عقب المذبحة، فقط ليعرف ما هو الفلسطيني في الوقت الذي كان فيه شعراءٌ وكتابٌ فلسطينيون ينشرون هذراً بلا معنى إلى جانب مقالة "جينيه" في مجلة الكرمل.

لم يكن سكان قرى الكرمل، حين إعلان دولة إسرائيل، يعرفون أنهم معزولون عملياً عن بقية الأراضي الفلسطينية، وأن ذئاب الصهيونية خلّفتهم وراءها في اندفاعها لتصدّ ذئاباً من نوع آخر بدأت تتصارع على الغنيمة السهلة. فظل قرويو هذه المنطقة من العالم ممسكين ببنادقهم العثمانية يواصلون إطلاق النار على خطوط مواصلات الجيش الصهيوني. ولم يتجاوز فعلُ هذه البنادق الساذجة سوى إزعاج المواصلات فترةً من الزمن، قبل أن يتخذ هذا الجيش قرارَ الخلاص من هذا الإزعاج فيجتاح قراهم ليلا واحدةً بعد أخرى، ويفتح الطريق لقوافلهم لتلتحق بالعرب.

في هذا الجو وصل سكان الكرمل عبر الخطوط الاسرائيلية إلى "جنين" بعد أن تسلّى الجنودُ بسلب القرويين شيئا من ذهبهم وعفّوا عن أدوات الطبخ النحاسية التي كان بعضهم يحملها

في أكياس ٍعلى ظهره. وتوزّعَ هؤلاء بين بساتين اللوز الذي كان مثمراً آنذاك، وكان نصيب أهلي بستان لوز كانت الأمُّ تحظر على أطفالها التقاطه. هذه القروية ُحرصت على جمع ما تساقط منه ووضعته جانباً لتأتي من ثم صاحبةُ البستان فتأخذه من دون أن تكلف نفسها الإلتفات إلى شبهِ الكائنات البشرية التي تلتحف السماء في بستانها.

في هذا المكان بالذات وُلدت كلمةُ "اللاجئ"؛ أطلقها سكانُ "جنين" و"طولكرم" و"عانين" وبقيةُ ُسكان فلسطين الشرقية على هؤلاء القرويين القادمين من الساحل. وسيحظى هؤلاء بدورهم بعد بضعة أشهر باسم "سكان الضفة الغربية" نسبةً إلى قطعة ٍ جرداءَ من الأرض اسمها "شرق الأردن" ستعلن نفسها بعد ذلك "مملكة هاشمية".

عبثٌ ألسني وجغرافي، يُجرّد فيه الإنسانُ من هويتهِ، ويُعطى المفهوم الجغرافي هويةً. وسيتردَّدُ في هذه المنطقة اسم "اللاجئ" طويلا كصفةٍ محقِّرةٍ وتعبيراً عن الازدراء والاستهانة. فيقول أحدهم شاتماً حمارَه : "أمش.. وجهك مثل وجه اللاجئ". وتقول امرأةٌ فلسطينية تصف فتاةً.. "هي فتاة جميلة ومؤدبة.. ولكن يا للخسارة.. هي لاجئة"..وستبدي شاعرةُ نابلس فدوى طوقان في ما بعد تعاطفها مع "اللاجئة" المسكينة لا مع الفلسطينية التي تشترك معها في الهوية.

ذكرَ أحدُ الكتّاب السوريين، ولا يحضرني اسمه الآن، في مقالٍ نشره في مجلة "الآداب" في الخمسينات، أنه كان يرى مصيرَه ومصيرَ أولادهِ في وجه اللاجئ الفلسطيني الذي يأتيهم بالحليب صباحاً في أحد أزقة دمشق. أما هؤلاء الذين يُفترض أنهم أبناء فلسطين واحدة، فقد القوا بالقرويِّ المشرَّد خارج صفة "الفلسطيني" وعزلوه في لفظة "اللاجئ"، بالضبط كما سيحدث بعد سنوات طويلة حين يطلق فلسطينيو الأردن على الفلسطينيين المشرَّدين من الكويت لقبَ "الكويتيين" لإبقائهم خارج السور، وإحاطتهم بما يكفي من الكراهية والنبذ والمجهول يبرّر لهم اقتراحَ شتى التخيلات عنهم. وسيكون لهذه المفارقة الاجتماعية تبعاتها السياسية؛ في قبول اتفاقيات "أوسلو" السرية (1993)، ونفي صفة الفلسطيني بالمفهوم السياسي والاجتماعي عن جزءٍ كبيرٍ من الشعب الفلسطيني، والاعتراف بأن أرضه (الساحل الفلسطيني والجليل والنقب) تدعى "أرض إسرائيل" الخرافية.

إن شرط الانقسام الفلسطيني هذا، أو الخيانة الوطنية بالأحرى، موجودٌ قبل قيام "إسرائيل" واستمرارها، ودخل في "ثقافة" مثقفي المنظمات الفلسطينية. فلم يعد حدثُ احتلالِ فلسطين بالنسبة لهم يتجاوز العام 1967. وفي هذا أبلغ دليلٍ على فشلِ الفكر الفلسطيني وثقافته في تكوين أو إعادة تكوين وجدان شعب واحد، أو على الأقل؛ فشل الجانب المهرّج منه الذي شاع في السنوات الأخيرة. وقد صادفتُ مهرجين فلسطينيين يحتجّون بحرارة ٍ وعنفٍ إن استبدلتَ اسم فلسطين الشرقية باسم الضفة الغربية، أو تجرّأتَ وقلتَ "فلسطين المحتلة" بدل "الأرض المحتلة".

ويمضي محمد علي طه في تهريجه إلى مدى أبعد، فيطالب الكتّاب الفلسطينيين أن يعيدوا النظرَ في ما يكتبون وفي ما يفعلون بعد اتفاق "أوسلو" وبعد الواقع الجديد. والطريف أن هذا يرأس ما يسمونه "الاتحاد العام للكتاب العرب الفلسطينيين في إسرائيل". وكأن الكاتب كما يعرفه هذا، مجرّدَ موظف علاقات ٍعامة أو أداة جهازٍ إعلامي.

لقد أخمد هذه الانقسامُ الانتفاضة الفلسطينية العظيمة، وهي انتفاضة مخيمات فلسطين الساحل أساسا، لأنها أعادت إلى الصراع وجهه الحقيقي المتواصل بين محتلّين وأصحاب وطن منذ ما يقارب القرن، أي منذ إقامة أول مستعمرة صهيونية في العام 1882، وليس "مستوطنة" كما دأب على القول إعلام المهرجين.

هنا في هذا المكان وُلدت لفظة "اللاجئ"، وهنا خطرت للفلسطيني الذي هو أبي، وقد طُرد بالقوة من قريتهِ على السفح الجنوبي للكرمل وبعيداً عن قبور أجداده وبساتينهم، فكرةُ أن يرحل عن هذا الجحيم. لقد أخرجته "الهاغاناه" من معناه، ولم تفعل "جنين" سوى أن ألصقتْ به اللا معنى نفسه: اللاجئ.

وسيأتي بعد ذلك رجـالُ اتفاق أوسلو، وكلّهم من رجـال البزنس فعلا لا مجازاً، ليطردوا ابنه من أسـم "الفلسطيني" ويعيدوه إلى اللامعنى مرة أخرى.

قال والدي يخاطب الأم: دعينا نمضي إلى العراق

- وماذا سنفعل هناك ؟
- سنلتقط التمر .. ونبيعـه .. وهذا أشرف لنا من هذا الإذلال

كانت كل البيوت والوجوه موصدة، ولم يكن هذا القرويُّ يعرف عن العراق سوى اسمه، وأنه مصدر التمر والبلح. أما التفاصيل الأخرى، فلم يكـن لهـا وجود، وهذا هو وضع غالبية الفلسطينيين، أعني الفلاحين، آنذاك. أولئك الذين لا يعرفون شيئاً مما يدور حولهم. أو أولئك الذين يُطلق عليهم مالكو الأراضي وورثةُ الإمتيازات العثمانية الاسم الذي يتمطقون به متأففين: سواد الناس أو الرعاع، ويطلق عليهم ساكن المدينة الفلسطيني اسم "الفلاحين" استهجاناً وازدراءً. وسيقول والدي متحسّراً وهو يجلس في مقهى في أعماق الجنوب العراقي في ما بعد.. "ليتنا .. متنا هناك". وستعلّق سلمى الجيوسي، سليلةُ إحدى العائلات البدوية التي أنعم عليها فيصل الأول بالغنائم، على مذابح صبرا وشاتيلا بقولها "فلاحو بلادنا مساكين.. تعذبوا كثيرا.."

* * * *

إذن في شاحنات الجيش العراقي المنسحب من "جنين" أُخذت قبيلة فلسطينية يُقال إن تعدادها آنذاك كان 20 ألفاً مابين امرأة وشيخ وشاب وطفل. ويقال بين الناس أن العراق أخذ هذا العدد بعد تعهدٍ من قبل الحكومة العراقية بإعاشته مقابل إعفائها من المساهمة في ميزانية وكالة الغوث التي كانت الأمم المتحدة في الطريق نحو إنشائها.

وفي مكانٍ آخر نجد وثيقةً محفوظة في وزارة الخارجية الإسرائيلية تقول أن "حسني الزعيم" بعد مضي زمن قصير على استيلائه على الحكم في سورية اقترح لقـاءاً مع "ديفيد بن غوريون" وجهاً لوجه من أجل التوصل إلى اتفاق سلام. وقال في اتصالاته مع الإسرائيليين أنه " يوافق على استيعاب مابين 300 ألف إلى 350 ألف لاجئ فلسطيني في بلده وتوطينهم بصورة دائمة". وفي 16 ابريل 1949، كتب بن غوريون في مذكراته: "اقترح السوريون سلما منفردا مع إسرائيل وجيشا مشتركا غير أنهـم يريـدون تغيير الحدود ويريدون نصف طبريا".

وليس معروفا ما إذا كان التعهد العراقي يتضمن شيئا يماثل تعهد حسني الزعيم، إلاّ أن ما سيحدث للقبيلة الفلسطينية من إبادةٍ ألسنية ونبذٍ في البداية في العهد الملكي، ثم إعادة تأهيل وتربية "قومية" على حد تعبير أحد أقطاب البعث، المطرود مـن منصبه في ما بعد مع تعهدٍ بإغلاق فمـه، لايبتعد في مفهومه عن هذا.

جُمـع اللاجئـون فـي البدايـة، وهـذا هـو اسـمهم الرسـمي والشـعبي فـي الأربعينـات والخمسينات، في مدارس يهودية ضخمة أشهرها مدرسة خضّوري في الشورجة والشبيهة بقصر من قصور تجار "البندقية" الايطالية. وسيأتي على هذه المدرسة حريق هائل بعد بضعة أشهر من تسلم العسكريين السلطة في العراق(1958).

كان التجميع عشوائياً بحيث تجاورت طبقتان: طبقة مالكي الأراضي، وهم شيوخ عائلات بدوية الأصل وباشوات من العصر العثماني، وطبقة الفلاحين في مكان واحد. إلاّ أن هذا "الخطأ" تم إصلاحه فوراً، اذ تقدم أقطاب العائلات بالتماسٍ، وتم تبنيـه مـن قبل الحكومة العراقية، طلبوا

فيه اعطاءهم وضعا خاصا، إذ ليس من المعقول حسب تعبيرهم أن يُحشروا مع "فلاحيهم" في مكان واحد.
واستجابت الحكومة العراقية لهذا الإلتماس، فأفردت لهذه العائلات "الكريمة" أو المقدسة مساكن خاصة وأعطتها الجنسية العراقية في ما بعد، وبعضها حظي بالجنسية الأردنية واللبنانية ..وهكذا.
وجاء إصلاح "الخطـــأ" الثاني أيضا، خطأ تجميع اللاجئين في مكان واحد، فتم تشتيتهم أكثر، فأُرسل جزءٌ منهم إلى "الموصــــل" في أقصى الشمال، وجزء الى"البصرة" في أقصى الجنوب، وظل جـــزءٌ في "بغداد". وترافق هذا التشتيت مع أوامر مشدّدة للسلطات الأمنية بعدم السماح للاجئين بالتنقل أو تغيير أماكن سكنهم.
تجربةُ "الموصل" لم تصل أخبارُها، لأن شهودها لم يتحدثوا بعد، أو ربما لم يبق منهم من يستطيع الإدلاء بشهادته. ولكنهم تعرضوا هناك على الأرجح لكل ما تعرضت له بقية اللاجئين في العراق؛ أعني العواصف التي اجتاحت الحياة العراقية بعد العام 1958. أما بالنسبة لتجربة "بغداد" التي لم يظهر روائي فلسطيني أو كاتب ذو قيمة استطاع التقاطها، فقد طُمست هي الأخرى، ليس بسبب عدم توفر الصحافي أو الكاتب الفلسطيني، بل بسبب أن هؤلاء أعطيت لهم موضوعات أخرى لتداولها وسقطت تجربتهم وتجربة قبيلتهم في النسيان. فإضافةً إلى تداول "الموضوع العراقي" ولدت فيما بعد ظاهرة تداول "الموضوع الفلسطيني" الذي لم يكن يتجلّى إلاّ حيث تدور دائرة ضوء السياسي، فكل فلسطيني في أي مكان اتجهت بوصلته إلى "الساحة النضالية" بعيدا عن يومياته كفلسطيني في هذا المكان أو ذاك. وفرضت هذه الظاهرة، التي كانت من علائم "الثورية" الغيابَ المطلق لكل ما هو فلسطيني خارج النموذج اللفظي الجاهز الذي كرّسه كتبةُ المنظمات ومن ظل مأخوذا بأضوائهم.
في أواخر الخمسينات، وحين قرأتُ مقالا كتبه طالبٌ جامعي فلسطيني في صحيفة عراقيـــة يشكو فيه من لا إنسانية مسكن الفلسطيني في مدرسة "خضوري" (التوراة)، سخرتُ أنا نفسي من هذا الذي يفكر بقضية خاصة "تاركا فلسطين جانبا".
كان الإيهام بأن ما يعيشه الفلسطيني على الأرض ليس جديرا بالتفكير شائعا. المهم أن يعيش"القضية"، أي أن يتوهم له حياة أخرى.
لم يؤثث الفلاح الفلسطيني حياته، وظلت فقيرة بائسة. ولكن أكان إسقاط الملموس والمعاش اليومي واعتلاء أوهام الثوري، قادراً على إمداده بموضوعه؟ أو ليس هذا هربا وتجاهلا للحقيقة الثورية دائما.

*　*　*　*

في أواخر الخمسينات شهدتْ "بغداد" ميــــلاد منظمة فلسطينية كانت تدعى "جبهة التحرير الفلسطينية" وعلمتُ في ما بعد أن مؤسسها كان "صالح سرية" بالتعاون مع الحاج أمين الحسيني الذي أعطي لهيئته العليا مكتب في بغداد.
وتذكرت اسم "صالح سرية" ؛ لم يكن صالح سوى اسم كاتب ذلك المقال التوراتي الــذي أثار سخريتي. وصادفتُ "صالح" مرّة في أيام دراستي الجامعية. كنا طلبة حول طاولة، وكان أحدهم يجلس على الطرف البعيد يقلب كتابا بين يديه. وكان هو "صالح" في أيام إعداده لرسالة الدكتوراه. وغاب عني الاسم طويلا، إلى أن أوردته وكالات الأنباء بوصفه زعيمَ تنظيم اسلامي في القاهرة اقتحم كلية الشرطة العسكرية. كان ذلك في منتصف السبعينات. وأُعدم الرجل الذي وصفته الصحف المصرية بالغامض وذي التأثير الساحر على مريديه.

منـــذ العام 1949 تنبأ موظفو الخارجية الإسرائيلية بأن اللاجئين سيتدبرون أمورهم. فأولئك الذين يتمتعون بأعلى مستويات القدرة على البقاء سيتدبرون أمورهم عن طريق خيار طبيعي. أما الباقون فسيسحقون: سيموت قسم منهم، وسيتحول معظمهم إلى أشباه بشر وحثالة مجتمع، وينضم إلى أكثر الطبقات فقراً في الدول العربية.

وفي العام 1959 كانت جبهة الغامض "صالح سرية" فتى المقال الثوراتي تطلق مقولة بين اللاجئين مفادها "أن رصاصة واحدة تطلق في فلسطين تعادل كل العمل السياسي خارج فلسطين"

ويبـــــدو أن الاميريكيين كانـــوا أكثر خبـــرةً ومعرفةً من موظفي الخارجية الإسرائيلية الذين عكست نبوءتُهم خبراتهم فـــي بلدانهـــم الأوروبية الشرقية، فجاءت نبوءتهم تعبيراً عن التفكير الرغبوي لا الاستقراء الموضوعي.

تحذّر تقديرات الخارجية الاميركية في الخمسينات من "خطر" اللاجئين الذين هم وفق التعبير الاميريكي "مجموعة متذمرة يعادل تعدادها عدد الجيوش العربية مجتمعة، وإنها تشكل بؤرةً خصبة للدعاية الشيوعية". وسيأخذ رئيس وزراء العراق "نوري السعيد"، الذي سيجرّ العراقيون جثته في شوارع بغداد مبتهجين بعد أيام من ثورة تموز 1958، بهذا التقرير الاميريكي ويلخصه في أحد خطاباته، فيشير إلى اللاجئين كسلاحٍ مدمر في الشرق الأوسط وقد تستغلهم الشيوعية.

كنتُ صغيراً يوم ذاك، وسألتُ زميلا عما تعنيه لفظة الشيوعية وكيف يكون اللاجئون سلاحاً مدمراً، فأفهمني أن الشيوعية هي دولة تأخذ الأطفال إلى المدارس وتربيـــهم بعيـــدا عن أهاليهم، أما عن السلاح المدمر فلم يكن يعرف شيئا.

ألهذا السبب بدأت تتكاثر في أواخر الخمسينات المنظمات الفلسطينية وكأن الأمر أمر استعجال إعداد مساربٍ تضمن تدفقاً محسوباً للغضب الفلسطيني؟ ألهذا السبب عُزل جزء من القبيلة الفلسطينية في "البصرة" طوال عامين وراء الأسلاك الشائكة في معسكر بريطاني مهجور يقع على بعد 40 كيلو مترا بعيداً عن البصرة جنوباً في الصحراء؟ ألهذا السبب وُضعت مخيمات الفلسطينيين في لبنان والأردن وسورية تحت رقابة أمنية مشددة، ومُنع سكانها من العمل والتنقل؟ ألهذا السبب، كما علمتُ في ما بعد، كانت الإدارة المصرية تمنع انتقال فلسطيني قطاع غزة إلى مصر، فكان الشبان يعبرون الصحراء معلّقين أسفل عربات القطار؟ ألهذا السبب وأسبابٍ أخرى معاصرة، مُنع "اللاجئ" من الاختفاء وراء أي جنسية حتى يظل في دائرة ضوء أبراج حراسةِ المعسكرات والقلاع العربية؟

III

طوال عامين فُرض علينا حظرُ التجوال خارج المعسكر البريطاني الذي يُطلق عليه الآن اسم "معسكر الشعيبة". حول هذا المعسكر كانت تنتشر آنذاك معسكراتٌ أخرى أهمها معسكرٌ لسلاح الجو الملكي البريطاني (RAF). وهذا الاسم الأخير كان أكثر الأسماء التي التقطها اللاجئون تداولا بينهم وسط الصحراء المحيطة بهم، لأنه المعسكر الوحيد الذي سُمح لبعضهم بالعمل فيه كسائقي شاحنات.. أو خدم.

أذكر أن الأسلاك الشائكة التي كانت تحيط بالمعسكر على هيئة لفّاتٍ هائلة الارتفاع كانت أكبر من المعتاد، ولا يعيدها إلى ذاكرتي إلاّ مشهدُ الأسلاك التي أحاط بها "موسوليني" الصحراء الليبية لمحاصرة عمر المختار وصحبه في العشرينات.

ربما كان حجم الأسلاك هائلا بسبب حجمي الصغير وأنا أمرّ بجانبها وأنظر إلى الخلاء الشاسع وراءها. ومع ذلك لم تفتني ملاحظة فجواتٍ في هذه اللفّات تخترقها ألواحٌ خشبية يضعها اللاجئون ليتمكنوا من المرور بسلام.. فأين كانوا يذهبون؟ من سُمح له بالعمل في المعسكر البريطاني كانت البوابة طريقه، أما الآخرون، فكانوا يمضون إلى أقرب قرية وهي "الزبير" ليعملوا باعةً متجولين في أزقتها التي لم تتغير منذ العصر الأموي، وليعودوا خلسةً مع المساء.

كانت المساكنُ مهاجعَ الجنود المهجورة، وقد تقاسمتها العائلاتُ بأن وضعت خرقاً باليةً على حبالٍ تفصل بين عائلة وأخرى. وكان المطبخُ مركزيا. نستيقظ نحن الصغار مبكرين ونحمل إليه أوعية ونعود بالحساء لإفطار العائلة، حساءِ نوعٍ من الحبوب يدعى"الماش" أخضرَ اللون، وكان يدهشني أنه ينمو بكثافة حين أدفنه في التراب.

في هذا المعتقل ذي الطرقات ومهاجع الجنود وبركة السباحة والسينما (أحيانا كانوا يعرضون على اللاجئين مشاهدَ من الحرب الكوريّة ونشرات أخبار مماثلة أسبوعيا في الهواء الطلق) عيّنوا لأطفال اللاجئين مدرساتٍ من بينهم، وأشهرهن كانت "رفيقة" الخياطة ذات الأصابع النحيلة والطويلة التي عملت كمساعدة للمدير العراقي الزائر بين فترة وأخرى. وكان هذا المديرُ يصرّ على أن التعليم الشفهي أفضل أنواع التعليم كما يبدو، لأنه جاء بالكتب مُكرَهاً في ما بعد بسبب ضغط اللاجئين الذين كانوا فلاحين بالفعل، إلاّ أنهم كانوا قادرين على الربط بين وجود المدرسة ووجود الكتاب.

وهكذا بدأنا نتعلّم الأبجدية بكتاب "القراءة الخلدونية" فرحين رغم تعليق المدير الغامض حين سلمني الكتب قائلا: "لولا عيون أبيك ..لما رأيتَ هذه الكتب.." فجعلني أشعرُ بالذنب كلما فتحتُ كتاباً لسببٍ لا أدريه.

* * * *

ذاكرةُ هذا المعسكر هي المكان الذي استيقظتُ فيه مبكراً. وما تزال أسئلةُ البداية فيه تراودني. فلماذا كانت الكتبُ محرّمةً إلى هذه الدرجة؟ ولماذا شعرتُ أن في كلمات المدير كراهيةً مكبوتة؟

ولماذا حين دخل أحد الجنود العراقيين مأوى أحد اللاجئين وشاهد صورة الحاج أمين الحسيني معلقة ً على الجدار سأله لماذا يعلّق صورة هذا الخائن؟

كان لمعسكر "الاعتقال" هذا مراراتُه بالتأكيد، مراراتٌ أكبر من سنّي آنذاك، إلاّ أنني تشرّبتها بطريقٍ غير مباشر في شبه الصمت الدائم الذي عاشه أهلي. الأصدقاءُ الأكبر سنّاً، والذين مرّوا به واعين، وكتبوا قصائدَ وقصصا فيما بعد، أسقطوه من ذاكراتهم. وهو أمرٌ ظلّ يدهشني حتى وقت قريب، أي إلى أن اكتشفت ُ سرَّ هذا الطمس الذاتي لجزءٍ من الذاكرة، وإقامةِ أبنيةٍ فوقها حجارتها استعاراتٌ وتعبيرات لغوية فارغة: إنه محو الشخصية لسانياً وعاطفياً.

حين انتقلنا، أو سُمح لنا بالانتقال، إلى مدينة "البصرة" ذاتها في العام 1952، مررتُ بأول تجربةِ اشتباكٍ ألسنية في هذا العالم الغريب. وهي تجربةٌ مرّ بها كلُّ لاجئ مع اختلافٍ في النتيجة وردّ ِ الفعل.

كانت الهواجس والوساوس كثيرة. وأكثرها وُلد في معسكر الاعتقال ذاك. فقد شاعت بين اللاجئين قصة ُاعتقال يهودي أمسكه الحرسُ وهو يحاول تسميم خزّان المياه الوحيد في المعسكر. وستدفعنا هذه القصة إلى رفض قبول حلوى حاول يهوديٌّ عجوز مبتسم تقديمها لنا نحن الصغار أمام المعبد اليهودي المهجور المجاور للتــوراة. وشاعت أقاصيصُ عن أشخاصٍ زارتهم في الليل أشباحُ القتلى العثمانيين الذين سقطوا في الحرب العالمية الأولى في معركةٍ كبيرة بقرب هذا المعسكر. وكان استنكارُ الأمّ تزويجَ فلسطيني ابنته من عراقي يبذرُ في نفسي البذرة الأولى للشعور بالاختلاف والتميز.

وستحتقر أمي شجاراً بين اللاجئين على حصص أكياس ِالسكر والطحين، وترى فيه عاراً وأيّ عار. وسيولّدُ هذا في النفس إعلاءً لقيمٍ تتجاوز سقط المتاع.. واعتزازاً بما هو أكثر قيمـــة من السكر والطحين.

تحت ظلِّ هذه الوساوس والمخاوف، ونمو الإحساس بالاختلاف أمام العالم الخارجي الغريب، أرسلني أهلي في الأيام الأولى من إقامتنا في بيتٍ كبير يعلو سوقاً مكتظاً بالباعة لأشتري "ملح الليمون". ووقف الصغيرُ أمام صاحب البقالة طالباً "ملح الليمون". وتحيّرَ الرجل الذي لم يفهم معنى هذه الكلمة، واستولى عليه فضولُ تأملِ هذا الصغير الغريب، فبدأ يعرض عليه أنواعاً من الأشياء: حلوى وأمشاط ومقصات، والصغيرُ يهز رأسَه رافضاً. وفجأة احتشد المكان بعددٍ من العمالقة، وكلُّ واحد منهم يحاول أن يفهم ما يريده الصغير، أو يحاول بالأحرى معرفة "ماهو" هذا الصغير الضئيل الحائر بينهم، لا يفهم ما يقولون ولا يفهمون ما يقول. وأخيراً اكتشف أحدهم المقصود بكلمة "ملح الليمون" فهتف بصاحب البقالة أنــه يريد "نيموندوزي". وعرفتُ في ما بعد أن هذه الكلمة التركية التي تعني ترجمتها الحرفية "ملح الليمون" هي المقابل العراقي للفظتي.

كانت "البصرةُ" في الخمسينات ما تزال قريبةً من مناخها العثماني، وكانت الألفاظ التركية ما تزال طرّيةً إلى حدّ كبير.

وحتى في الستينات، كان هنالك بيتٌ على الأقل، يسكنه أحد أبناء العشائر القادمين للدراسة في ضيافة عجوز من معارف عشيرته، تحتفظ جدرانُ غرفهِ بصور ضباطٍ أتراك بشواربهم الضخمة وطرابيشهم الحمراء، وتروي إحدى لوحاته معركة من معارك الجيش التركي.

هذا الاشتباك اللساني الأول، والــذي سيجبرني على اســتخدام كلمـــة "نيموندوزي" وآلاف الكلمات العراقية المتنوعة الأصول مابين سومرية وأكدية ونجدية، لم يكن يسحق لهجتي ولساني فقط، بل وتجربتي أيضا، وقدراتي التعبيرية*.

لم يكن المحرَّمُ كما تعلّمتُ في ما بعد نطقَ اللفظ "الفلسطيني" الذي يرميك بعيدا و ُيفردك وسط هذا العالم الغريب بل الكشف عن هويتك كلاجئ. وهذا هو السببُ، كما أعتقد، الذي جعل الكاتبَ والشاعرَ الفلسطيني يتجنب كتابة َ أو نطقَ ما يشي بأنه " لاجئ " في هذا المكان من العالم. ومن هنا سقط من وعيه الكتابي واللفظي كل ما هو خاصٌّ ومتميِّز.

أحد أصدقائنا، وكان يدرس اللغة الإنجليزية في معهد اللغات في بغداد، كان يبدي ازدراءه لوثيقةِ السفر التي تحمل اسم اللاجئين، بقوله: What is this ? a travel document ?. والحقيقة أن هذا الازدراء كان تعبيراً عن كراهية النفس بالدرجة الأولى، فهذا الصديق كان يصاب بالرعب حين نزوره في المعهد، ويتحاشى أن يحدثنا بلهجته الفلسطينية مصرّا على اصطناع اللهجة العراقية خشية أن ينكشف أمرُه بين زملائه ويُقبض عليه متلبسا بجريمة كونه "أحد اللاجئين".

هذا الصديق سيذهب إلى السعودية في ما بعد وينخرط في سلك التعليم ويتزوج، وأصادفه بعد سنوات طويلة وهو يشكو من مرض في القلب. كان يأتي صيفاً لزيارة أمه وإخوته أحياناً، وحين سألتُ عنه ذات يوم قيل أنه انتقل إلى رحمة الله.. وما الجدوى من ذكر اسمه؟.

سيتعلّلُ بعض اللاجئين، في ما بعد، بالعروبة والهوية العربية، وسيكتفي بعضهم بإخفاءِ جريمةِ كونهِ "لاجئاً" بالغرق في اللهجة العراقية وطقوس شرب"العرق" العراقي الشهير، وسيوغل آخرون عميقاً في الأحياء العراقية، فيتزوجون ويزوجون ويغيّرون أزياءَهم، وكلُّ ذلك طلباً لقبول هذا العالم الغريب لهم.

* * * *

لم تكن "البصرةُ" عالماً ضاغطاً على اللسانِ وخصوصيةِ التجربة فقط، بل كانت مكاناً لتجاربَ عزلٍ أشدّ مرارةً، أقلها الإرهابُ الذي تعرّض له الفلسطيني، تجاربَ لم يتحدث عنها أحد حتى هذه اللحظة، بمن فيهم الصديق الشاعر "خالد علي مصطفى" الأكبر سنا مني، والذي عاش هذه التجاربَ معنا نحن الصغار، ولكن قصائده المطوّلة المصقولة والشبيهة بعرباتِ قطارٍ متماثلة خلتْ من ملامح ملموسة لحياةِ اللاجئ، أو المعادل الموضوعي لكل ذلك الرعب والخوف والإذلال في تلك الأيام. صحيحٌ أن الإنتماء إلى الكلِّ العربي يمنح اللاجئَ "تعويضاً" ولكنه لا يمنحه الملموسَ الإنساني لما هو عليه واقعياً؛ إنه يمنحه وجوداً "وهمياً" و ملموساتٍ أخرى.

تتميز عدةُ شعوبٍ برفضِ الأجنبي وعدم التسامح مع ملامحه الخاصة، وتعمل جاهدة على فرض لسانها ووجدانها وتجاربها عليه. وكلُّ ذلك بفعلٍ بسيط غير مباشر: إنها تشعره بغربته وشذوذه في كلِّ لحظةٍ حين ترفض فهم لهجته أو التعامل معها. ولكن الأخطرَ هو جعله يحسّ أن مجرد كونه "غريباً" لهو جريمة يجب أن يخفيها. وكان الأمرُ أقسى بالنسبة لنا، لأن الجريمة التي كان علينا أن نخفيها هي أننا من "اللاجئين" أي أمراً نرتكبه بمجرد وجودنا: وجود اللاجئ الذي أُعطى لنا بالاقتلاع من البيتِ والأرض أوّلاً، ثم بتسميتنا من قبل هذا العالم الغريب. لكن هذه اللفظة ليست شتيمةً فقط، بل هي مما يحطّ وينتقص من قدر الإنسان، وعليه أن يتقبّلها، أي يقبل بأن قدره منتقص ومنحط.

في هذه المتاهة واجَهَنا الفضولُ أوّلاً: شراسةُ الأطفال العراقيين في المدرسة. كنا في المدرسة معاً، وأجد نفسي مع مجموعةٍ صغيرة من اللاجئين وقد ألجئنا إلى جدارٍ، وأمامنا متراسٌ من الحصى، وفي الجانبِ الآخر أطفالُ المدرسة كلها، وجوهٌ بعددِ النجوم. وكنا نشتبك معهم في معركةٍ سلاحها الحصى؛ إنه متراسنا الأول الذي وجدنا أنفسنا وراءه.

بعد أيام قرّرت إدارةُ المدرسة تشتيتَ هذه "العصابة" العنيدة من اللاجئين، وتوزيع أطفالها على عدّةِ مدارس. كنتُ حين أشكو للأستاذِ اعتداءَ طالبٍ عليّ لا أستطيع أن أفهمه ما أعني إلاّ بالحديث بالفصحى، كأن أقول له: "ضربني على أنفي" لأنني لم أكن أعرف ما يعنيه

الأنف باللهجة العراقية. وكان الأستاذُ يتجاهل الشكوى.. ويتركني لحيرتي.. ربما لأنه لا يفهم الفصحى كما كنت أظن.. لأنها لغتي.

وتم توزيعنا. فكان نصيبي مع اثنين آخرين مدرسة نائية تقع شرقي "البصرة" بين النخيل (لازالت أذكر أن اسمها كان "الخليل بن أحمد". وكنت أتساءلُ عن صلة أستاذ اللغة أحمد بهذا الاسم). وواجهنا الفضولُ منذ اليوم الأول. حين خرجنا من غرفة المدير بعد تسليم أوراق الإنتقال، وجدنا أمامنا حشداً من الطلبة المنتظرين، ما لبثوا أن فتحوا لنا ممرّاً صغيراً بينهم لنسير فيه. كان الكلُّ على الجانبين يتلهف لمعرفة ما هو هذا "اللاجئ الفلسطيني"، وأيّ كائن هو، وما شكله. وأتذكّر كيف كان الطلبة الأطول قامةً يمدّون أعناقهم فوق الحشد ليتطلعوا إلى الصغار اللاجئين وهم يسيرون في الممر الضيق. كانت الإشاعة المنتشرة في البصرة هي أن للآجئين ذيول قردة !

* * * *

وجاءت عاصفةُ الإرهاب بعد ذلك، بعد الفضول والعزل. كنا قد انتقلنا من منطقةِ السوق الموحل إلى "توراتين" تقابل إحداهما الأخرى في زقاقٍ، ويلاصق الأوسع بينهما معبدٌ يهودي مهجور. و بدأت تحدثُ حرائقُ متفرقة تندلع في الصرائفِ فجأة. والصرائف هذه مساكن ريفية عراقية، جدرانها وسقوفها من حزم قصب ينمو في منطقة الأهوار. وقيل آنذاك أن هذه الحرائق كانت تندلع فجأةً وكأنما من دون فعلٍ فاعل. وسرعان ما انطلقت الشائعةُ الكبيرة: أن مشعلي الحرائق هم اللاجئون. وحوصر هؤلاء كلٌّ في توراته وفي جسده، ومن كان يتصادف مروره في منطقة الصرائف لسببٍ ما لم يكن يخرج حيّاً.

هذه الصرائفُ أقامها الريفيون العراقيون حول البصرة، عمادها طينُ الأرض وقصبها، وكلّهم مهاجرٌ من الأرياف. كانت البصرةُ آنذاك تعني عدة أشياء: شركة النفط وشركة التمور وشركة الموانئ. وهي مؤسسات ثلاث تعني بالنسبة للفقراء فرصَ العمل والثراء. وهكذا تضخمت الصرائفُ وتحوّلت إلى مدنٍ كاملة تطوّق البصرةَ بحزامٍ من الفقر والتعاسة.

وتطاولت الهجمة الإرهابية على "اللاجئين". فقيل أن دولا أجنبية أرسلتهم لتدمير العراق. ولم يكن غريباً أن يُلقى القبضُ على أي فلسطيني خارج البصرة ويُسأل ماذا جاء يفعل هنا؟ ومن الذي أرسله؟ كان التنقل ممنوعاً بالطبع، والانتقال إلى مدينةٍ أخرى غير مسموح به إلاّ في حالاتٍ نادرة ومنها لمّ شمل العائلات التي مزّقَ شملها التشتيتُ بين بغداد والموصل والبصرة.

ولم تتوقف الهجمةُ إلاّ بعد الانقلاب العسكري المعروف في العام 1958، وكشف بعض أوراق الحكومة الملكية. وعُرف يوم ذاك أن حرائق الصرائف كانت من تدبير الحكومة العراقية وإصرارها على إجلاء الريفيين الفقراء الذين أحاطوا بالبصرة، ووضعوا يدهم على أراضٍ حكومية وخاصة، ووقفوا عقبة أمام تمليك هذه الأراضي لأثرياء شركة التمور والموانئ والنفط، بالإضافة الى محاربة "الشيوعية" التي لا تولد وتترعرع كما كان يرى نوري السعيد الا في تجمعات البؤساء، والحلُّ هو تشتيتُ هذا التجمعات بحرق صرائفها. ولم يمنع هذا الأمرُ بالطبع نوري السعيد من إعادة إحياء "المقام العراقي" الذي مات فور مغادرة العراقيين اليهود إلى فلسطين في أعقابِ العام 1948. وروى لي أحد أقطاب هذا الفن أن نوري السعيد استدعاه مع مجموعةٍ من محبي المقامات وطلب منهم إنشاءَ فرقة "مقام" تبعث مجدداً مقامات الحجاز والنهاوند والبراهيمي..الخ. كان نوري هذا من عشاق هذا الغناء ويدفع بسخاء لإعادةِ إحيائه.

----

*إذا كان معنى كلمةٍ ما يتحدّدُ بالاختلافِ، أي باختلافها عن الكلمات الأخرى، تلك التي تجاورها صوتيا ودلاليا ومكانياً، كما تقول "البنيوية" فإن زجّ كلماتٍ غريبة من حقولٍ دلالية وصوتية أخرى، وبخاصة إن كانت من لسانٍ آخر، في تعبيراتِ لسانٍ ما، يوقـــع ارتباكاً في هذه التعبيرات ذا أثر بالغ على القدرات التعبيرية، وعلى قدرة إيضاح النفس في اللغة أيضاً بالنسبة للمتكلم.

IV

كانت البصرةُ في تلك الأيام مختلفةً تماماً. فهذه البصرة التي رآها "البرتو مورافيا" الايطالي في السبعينات "مدينةً مهترئة"، وشاهدتُها في الثمانينات وكأنها حقلٌ أحرقته القنابل وأكَلَ البلى شوارعها وبناياتها، وجفّفَ جزءا من نهرها المتفرّع عن شطّ العربِ، وسحق الجفافُ

وبناءُ البيوت الخاصة بحيرةَ النخيل التـــي كانــت تحيط بهـا، هذه البصـرة كانت فـي الخمسينات تعتبر "ثغرَ العراق الباسم"، ولكن من المؤكد أن الذي أطفـأ بسمته لم يكن أحد اللاجئين، أو المهربين، أو الأكراد الذين جاءت بهم الحكومةُ الملكيّةُ منفيّين من الشمال ووضعتهم قيدَ الإقامةِ الجبرية في معزلٍ كبير ذي بوابةٍ وحيدة منذ زمن يقال انه يرجع إلى الثلاثينات.

كنت ألمحُ وراء بوابة المعزل أطفالهم بلباسهم الكرديِّ المميّز وهم يمرحون، ورجالهم الجالسين في مقهى داخلي أو السائرين في طرقات هذا المعزل. ولا أذكر إنني رأيت امرأةً كرديّة. سأرى هذه المرأة في ما بعد في الجامعة؛ كانت زميلةٌ تهوى الرسم. وأذكرُ لوحةً لها معلقة في مرسم الكلية وعليها توقيعها، وأحد الأساتذة يشير إلى اللوحة مبدياً امتعاضه من وضع الشعارات السياسية على اللوحات. لم يكن هذا الأستاذ يعرف أن اسم الرسامة كان "كردستان".

الزميلة الأخرى كانت بيضاءَ اللون إلى درجة لافتة للنظر، ذات عينين سوداوين تظللهما سحابةُ حزنٍ رقيقة، وكانت نشطة في مضمار التنظيم الطلابي. وكثيرا ما كنت أنتبه إلى أنها ترمقني من طرفٍ خفيّ بعينيها الواسعتين بلا سببٍ واضح بالنسبة لي على الأقل.

الكرديةُ الثالثة صادفتها في الطائرة المتجهة إلى "صوفيا" من "عمّان" مع ستة أطفال في العام 1992. كانت شبهَ أمّية تودّ أن تهبط في أيّ مطارٍ طلباً للجوء. وحين علمتْ أن الطائرة ستهبط في "أثينا" فرحتْ؛ لم تكن تميّز بين "أثينا" و "استوكهولم".

* * * *

كانت "البصرةُ" شركةَ نفطٍ و تمورٍ وموانئ، وشاطئاً طويلاً على "شط العرب" يحتشد بالمقاهي والسفن. وكنتَ ترى أساتذتك يسيرون عليه متأبطين كتباً وملفاتٍ أو جالسين في أحد مقاهيه، وزملاءَكَ بالطبع، والفتياتِ، وبضعة شعراءٍ يعتزّون أنهم ينشرون قصائدهم في مجلة "الآداب" البيروتية أو "الأديب".

هذا الشارع نفسه سارت عليه أقدامُ "السيّاب" و "البريكان" زميلي مرحلة الأربعينات الصاخبة، وشهد أقدمَ مناقشات تجديد الشعر العربي، وتردّدت بين أشجاره أسماءُ شعراءٍ مصريين وسوريين ولبنانيين، وأسماءُ صحف، وعناوينُ كتب، وآخر قصائد نازك "الملائكة" و "البياتي" "وسعدي يوسف". ولـــم يكن الإنجليزي "إليوت" بعيدا، ولا "ايديث سيتويل".

وسأعرفُ فيما بعد، حين زرتُ بيت "محمود البريكان" بدعوةٍ من أخيه عبد اللـــه، زميلي في المدرسة الثانوية، وقرأتُ مطولاته: "أعماق المدينة" و "حارس الفنار" و "القوة والأغلال " أن هذه المطوّلات هي التي خرج منها "السياب"، ومن البريكان ذلك المجدّد الكبير انطلقت أكثر حوافز التجديد أصالة وأهمية في الأربعينات.

في بصرةِ الخمسينات لم يرشدني أحد. وكان اللجوءُ إلى الداخل خياري. كان للممرِّ الطويل الذي سرتُ فيه بين حشدٍ من الطلبة الفضوليين الفضل في شعوري بأنني مختلفٌ وفي انتظاري مهمةٌ أعظم. ولهذا كنت لا أخشى التحدث بلهجتي، فيعرف العراقي أنني "لاجئ".. وليكن.. وماذا بعد؟

في خضم أحداث العام 1958 وانهيار الملكيّة، تشاغل العراقيون عن "اللاجئ" وكأنه غير موجود، وإن كانت جارة لنا لا تخفي دهشتها دائما من أننا لا نعلّق على جدار الغرفة الوحيدة التي كانت بيتنا صورةَ "الزعيم"، كأن مما لا يقبل النقاش أن يكون "زعيما" لنا أيضاً، وللأكوان كلها ربما.

نَصحَنا فلسطيني أعور يعمل شبهَ مراسلٍ في دائرة شؤون اللاجئين المحيطة بشؤوننا، بأن نبتعد عن الأحزاب والانتماء إلى أي فريقٍ في هذا الصراع الذي أعقب الانقلاب العسكري، فأجابه زميلٌ متقدم "أيديولوجيا" كان يردّد على أسماعنا دائماً قصيدة "ميخائيل نعيمة" عن العودة إلى الوطن لدفن الموتى.. "وإذا لم نفعل؟ "، فقال المراسل الأعور.. "البحر أمامكم والعدو وراءكم"! فضحك زميلي وقال.. "لا أرى وراءنا إلاّ جداراً، وكذلك ما أمامنا!" في إشارة إلى الزقاق الذي كان يجري فيه الجدال.

لم تكن علاقتنا بهذا المراسل ذي الأصول الغجرية ودائرته حميمة. ولم نكن نشاهد مديرها العجوز "أبو عادل" الجالس على مقعده منذ العصر التركي؛ شديدَ البياض والضـآلة معا، بغطاء رأسه (السدارة السوداء) ومعطفـه الأسود، ملموماً على كرسي، ضامّاً أطرافه إلى صدره، وبيده فنجان قهوة، إلاّ لماماً، وحين كنا نحتاج إلى أخذ شهادة "فقر حالٍ" لنُعفى من دفع الرسوم المدرسية، أو شهادة تقدير سن (لم نكن نملك شهادات ميلاد). حين ذاك كنا نختصر الطريق إليه بوساطةٍ من مساعده الضخم الأطرش الذي يقال أنه كان جنديا في الجيش التركي أسره الإنجليز وخصوه. كنتُ أتجنب المدير الضئيل أنا وأحد زملائي في المدرسة لأننا لم نكن نستطيع كتمان ضحكاتنا حين نشاهده في جلسته المعتادة تلك، فكان يغضب ويأمر بصوته الرفيع بطردنا، فيأخذنا الغجري الأعور جانباً ويوبخنا.

* * * *

هل كنا نبدأ تحرَّرنا من الإحساس بوصمةٍ أو جريمةِ كوننا لاجئين، وما الذي حدث ؟

في خضم الصراع الذي اندلـع بين الشيوعيين والبعثيين والقوميين، وعلى أصداء أقوال وخطابات "الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم" الذي كان إذا خطب لا يعرف أين يتوقف، كان الكلُّ يسير نحو المذبحـة ويحشد أسلحته. أناسٌ مع الوحدة مع عبد الناصر، وأناسٌ مع الاتحاد الفيدرالي، أناسٌ يهتفون بحياة القوميـة العربية، وأناسٌ يهتفون بحياة عبد الكريم الغالي. والأوفر حظّاً بين هؤلاء كان الشيوعيون. إذ سرعان ما نظموا اللجان المحلية والمكتبات والمؤتمرات العلنية والمسيرات الطويلـة وما أطلقـوا عليها "المقاومـة الشعبية" و "أنصار السلام". وبدأت الحرب الأهلية بين الأحزاب: داميـةً في كل زاويـة من زوايا العراق. لم تكن التوراة ولا سكانها بمعزل عن كل هذا. صحيح أن عدداً من اللاجئين عاد ظهر الرابع عشر من تموز نصفَ عارٍ يحمل قمصانه المبللة بالعرق بعد نهارٍ من المظاهرات والهتافات فرحا بالثورة على الملكية، إلاّ أن الأمر أصبح أكثر تعقيدا بعد اشتداد الصراعات. وأذكرُ أن "اللاجئين" اختبأوا حين أعلنت الإذاعات نبأ محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، وانطلقت الإشاعة بأن المغتالين فلسطينيون. كان اغتيال ملك الأردن عبد الله قد وصم كل فلسطيني بأنه إمكانية اغتيالٍ دائمة ومتحركة.

اللاجئون الذين رأوا في الوحدة مع جمهورية عبد الناصر ضماناً لعودةِ فلسطين أصبحوا أكثر خوفاً وانكفاءً، وفضّلوا تجنب المظاهرات والشوارع والأسواق؛ كانت وصمة "الناصري" أو"البعثي" أو "القومي" كافية لتجمع حولك غوغاء لانهاية لحشدهم بحبالهم وسكاكينهم متعطشين لسحلِ أي عدو للثورة أو متآمر من أمثالك.

* * * *

المشهد الذي لا ُينسى كان حصارُ التوراة، ومحاولاتُ حشودٍ من الغوغاء البسطاء اقتحامها على اللاجئين. وكان السبب تافها إلى حد بالغ. فقد اتّهَمَ صبيٌّ عراقي آثوري (مسقط رأسه "تل كيف" في أقصى الشمال العراقي وما يحيط بها من قرى) صبيّا فلسطينياً بأنه بصقَ على صورة "الزعيم". وصار الحادث سبباً لشجارٍ خرج منه الآثوري مهزوما.
وما هي إلاّ ساعة حتى عاد وخلفه حشدٌ تدفق وملأ الشارع المجاور لزقاق التوراتين بوجوهِ نساءٍ وعباءاتٍ وشبان وشيوخ غاضبين يحملون مناجل وفؤوسا وحبالا ويصرخون بأصوات عالية متناثرة.. "أين هذا الذي بصق على "الزعيم"..؟

كان المشهد مثيراً لفضولي، وأعترفُ أنني لم أدرك آنذاك عمق الخطر الذي يحمله هذا المشهد وأنا أتطلع إلى الحشدِ من نافذة الطابق الثاني حيث نقيم. وأبعدني أحدهم عن النافذة حين بدأ الحشدُ يتطلع إلى أعلى، فلم أجد ما أفعله سوى أن أعدّ كوبا من الشاي، ولكن حتى هذا الكوب لم أحظَ به، إذ رأيت أبي يهتاج فجأة وينقضُّ عليَّ وينتزع الكوب ويرميه أرضا فيتحطم صارخا.. "أهذا وقت شرب الشاي؟"، ولم أفهم ما هو الخطأ في شرب كوب شاي.
ولازمني عدم الفهم هذا حتى في أحرج اللحظات، ومنها تلك اللحظة التي اشتبك فيها الشيوعيون ذات يوم مع البعثيين في نادي الكلية متنافسين على إقامةِ حفلٍ بمناسبة ذكرى "فلسطينية" ما (كان شعار البعثيين آنذاك: فلسطين عربية فلتسقط الشيوعية، بينما حافظ الشيوعيون على شعار وطن حر وشعب سعيد)، وتراكض الطلبة هاربين، فأخذتُ كوبي بهدوء وانتحيتُ جانبا ووقفتُ على طرف المشرب أحتسيه بصمت وأنا أراقب الكراسي وهي تتطاير والمكانس تتحطم والأبواب تصطفق و "الثوريين" يحاول بعضهم طرد بعض من النادي ركلاً وصفعاً.

كلّما وجدتُ نفسي بلا شئ أفعله كنتُ أفكّرُ بكوب شاي. وذات يوم قدتُ تمرداً بسبب هذه العادة. كان الطلبة ُالأردنيون والفلسطينيون والبحرينيون والعراقيون وطلبة من جنسيات أخرى قد اقتحموا السفارة الأردنية غداة إعلان ميثاق الوحدة الثلاثية(1963)، ورفعوا على سطحها العلم الأردني بعد أن الصقوا عليه ثلاثة نجوم، فأصبح يحمل أربعة، وصرخوا مطالبين بانضمام الأردن إلى الاتحاد الثلاثي أو الوحدة الثلاثية، ومدوا على جدار السفارة الخارجي لافتةً كبيرة كتبوا عليها عزمهم على الاعتصام والإضراب عن الطعام حتى تتحقق الوحدة ! وما أن انتهوا من اتخاذ هذه الإجراءات حتى وجدوا أنفسهم بلا شئ يفعلونه، فاختاروا أن يرقصوا الدبكة فوق سطح السفارة بينما يدلي قادتهم بتصريحات لمندوب التلفزيون العراقي.

ولأنني لم أكن من هواة الرقص ولا التصريحات، فقد فكرتُ بكوب شاي، وفتشتُ عن المطبخ حتى وجدته، وهناك أعددتُ كوبا ساخنا ووقفتُ أحتسيه، فلاحظني بعض الطلبة، وتوافدوا واحداً بعد الآخر وكلٌّ يتناول كوب شاي أو كاكاو أو ما يتيسر، حتى خلت ردهاتُ السفارة من المعتصمين. وجاء أحد "الزعماء" يستطلع جلية الأمر، فوجدنا نحتفل احتفالنا الخاص، فغضب قائلا أننا نفشل الاعتصام والإضراب عن الطعام.. وربما الوحدة بهذا الفعل.. فاعتللتُ بأن الأمر لا يتجاوز كوب شاي لا أظنه سيفشل مشروع الوحدة العظيمة سواء أكانت ثلاثية.. أم رباعية.

* * * *

إذن تحت النوافذ مباشرةً كان الشارعُ يضجُّ ببشرٍ ناقمين يتهيأون لجرِّ أو سحلِ أو ذبح كل متآمر أو متطاول على "الزعيم".
ولأنني لم أتخيل نفسي أحد هذين الاثنين فقد كنت مطمئنا. وزاد اطمئناني حين بدأت التوراةُ تعج بمختلف الرتب العسكرية: شرطة ومقاومة شعبية وجيش، والكلُّ يبحث عن الصبي الذي بصق على صورة "الزعيم". قال أحد الضباط وهو يزيح جانبا عباءةً سوداء معلقة على الحائط ظنا منه أن الصبي مختبئ وراءها: "واللـه ما أحد يحرّرها غيرنا" وكان يقصد فلسطين بالطبع.
لم يجدوا الصبيَّ ولكنهم وجدوا أخاه الأعرج فاعتقلـوه، وكاد التجمّعُ المنتظرُ في الخارج أن يتناوله لولا أن قال أحدهم "لا.. ليس هو.. هذا أخوه"، فتوقف الهياج. وسلّم الصبيُّ نفسه في ما بعد ليضمن سلامته بعيداً عن الشعب المتحمس للدفاع عن شرف زعيمـه الذي أهانته بصقةٌعلى صورته بتمزيق الصبي قطعـةً قطعة.

* * * *

هذه "البصرة" العباسية التي شاهدها الروائي الإيطالي "مورافيا" مهترئة ورأيتها في الثمانينات خربةً، مازال يشقها نهرٌ متفرع عن شط العرب تقطعه بضعة جسور خشبية هنا وهناك. وأذكرُ، حين أكون في طريقي إلى المدرسة الثانويـة أسير بمحاذاة هذا النهر، أنني كنت أجدُ الشارعَ يضيق فجأة بسبب زاوية مبنى تخترق الشارع وتكاد تصل إلى حافـة النهر لولا متر هنا أو متر ونصف هناك، فيضطر السائرُ إلى الانصياع لأمر هذه الزاويـة والمرور بحذرٍ بين حافة النهر والمبنى قبل أن يتسع الشارع مجدداً. لم أنس هذه الزاوية، وحرصتُ عدة مرات على البحث عنها في كل مرة أزور فيها البصرة، والعجيب أنني كنت أجدها في مكانها ذاك دائما.
وآخر مرة كانت في ديسمبر 1990، حين كان العراق يحتل الكويت وتنقل شاحناته أفرادَ الجيش الشعبي الذين كانوا يلتقطون من الشوارع ويُرسلون إلى الجبهة مباشرة. كانت الزاوية ما تزال في مكانها ذاك تعيق المرور رغم أن المبنى بأكملـه لم يكن إلاّ أطلالا.

V

مع تباشير الفجر الأولى، أو حتى قبلها بقليل، كنتُ أصحو من النوم تلقائيا أو على يد الأم وهي تهزني بلطف: إنه موعد الذهاب إلى المخبز وشراء الخبز. أما لماذا التبكير المبالغ فيه لشراء الخبز اليومي، فذلك لأن المخابز، ومع ارتفاع شمس النهار، تكتظ بالمشترين، ولا يستطيع الصغارُ أمثالنا الوصول إلى نصيبهم وسط التدافع والفوضى والصراخ.

في هذه الرحلات الليلة تعرّفتُ على الشيوعيين والأكراد والفلاحين العراقيين مبكرا. فذات فجر وكنت مبكرا أكثر من المعتاد كما يبدو، وجدت المخابز ما تزال مغلقة، ومع ذلك مضيتُ من شارع إلى شارع في سكون الليل باحثا عن ضوء ما لعل مخبزاً من المخابز يرميه الحظ في طريقي. وأخيرا لاح لي ضوءُ مخبزٍ بدا وكأنه هبة من السماء وسط الظلمة الحالكة والبرد القارص. ودخلتُ وأنا أتهلل فرحا في داخلي، إلا أن عجبي وخيبتي كانا بالغين حين بادرني أحد الخبازين، وكان غليظ الرقبة والذراعين، بقوله "لا خبز اليوم"، وسألت لماذا، فتبرع بالجواب شخص يفترش الأرض:" لأننا شيوعيون كما يقولون". واستدرت على أعقابي من دون أن أفقه شيئا. حسبتُ الرجلَ يسخر مني، إلاّ أن لهجته المتأففة كانت تؤكد أنه لم يكن ساخرا بقدر ما كان يقول حقيقةً تسبب له قلقا.

كان ذلك في العهد الملكي الذي اعتدنا فيه أن نخشى الإلحاف أو الظهور بمظهر الجهلة حتى لا تحيط بنا السخرية. ومع ذلك كانت السخرية كثيرا ما تحيط بإنسان آخر نحيلٍ من كائنات آخر الليل. كان ذا وجه نحيل، وملابس أكثر غرابة، اعتدتُ على رؤيته مبكرا. وكثيراً ما كنا نلتقي وحيدين عند بوابة المخبز وأمام طاولته التي تلقى عليها الأرغفة الساخنة. ما كان يبدو غريبا؛ لباسه المميز ولغته غير المفهومة أو المنحرفة قليلا. وكثيراً ما سمعتُ الخبازين أو زعيمهم موزِّعَ الخبز وجامعَ النقود، يطلقون تعابير وتعليقات ساخرة تتهم الرجل بالعته أو البلاهة، أو الجنون أحيانا.

ربما كانت نظراته التي لا تستقر على شئ هي السبب. كان يهمهم بكلمات غريبة لامعنى لها بينه وبين نفسه، ويحتقن وجهه، فيتناول أرغفته، وهي كثيرة عادة، متجاهلا التعليقات، وينصرف وعلى وجهه شئ من الألم الغاضب ربما كنت الوحيد الذي يلمحه.

كان الرجل كرديّاً من المعزل الذي أعرفه، وكثيرا ما مررت ببوابته الكبيرة. لم يكن من المألوف مصادفة أحد الأكراد في الطريق، ويبدو أنه كان ممنوعا عليهم الخروج من معزلهم كما خيل إليّ، فكانوا يرسلون بورقهم رجلا منهم لشراء حاجياتهم هو هذا الذي أطلق عليه الخبازون لقب "المجنون".

كانوا سكان كهف بالتأكيد، إلا أن رجلهم لم يكن مجنوناً، بل كان ذا لسانٍ لا يفهمونه، وهم من لسان لا يفهمه. بضعةُ ألفاظٍ كانت تكفي لشراء أرغفة الخبز. وأخرى مثلها لشراء الطعام من السوق الذي يضجُّ بأصواتِ الباعة والحمالين والذباب وعربات اليد الطويلة التي يدفعها أصحابها أمامهم صارخين بالناس أن يبتعدوا عن طريقهم. ولم يكن هذا الكائن المنفي، لا "اللاجئ"، يشعر بالحاجة للتنازل عن لسانه. النفي درجة أفضل من اللجوء، لأن المنفي لا يشعر بالمهانة. إن اختلاف المعنى في ذهنه يظل محددا بمنظومة ألفاظ لغته. فهي التي تحدّد له بحقلها الدلالي والصوتي معاني الأشياء واختلافها. أما اللاجئ فأن ما يتسرب إلى نفسه ولغته من سيولٍ لشبيه بأخاديد تثلم الشخصية المتعبة والروح المثقلة بجريمة تود الخلاص منها اسمها "اللجوء".

في هذه الأجواء سمعتُ بلفظة "الشيوعيين" و "الأكراد". وستكون مناسبة تعرفي على "الفلاحين" في ظروف مختلفة. اعتدتُ على رؤية ريفيّ شاب قوي البنية وحافي القدمين (كانت الأقدامُ الحافية مألوفة في البصرة، وقد عجبت ذات يوم من امرأة لاجئة تسير حافية القدمين ولا تشعر بالحرج). كان هذا الريفي يضع على رأسه ما يشبه خرقة تحت صينية خشبية تحمل أقداحا فخارية عديدة ممتلئة باللبن الرائب ذي القشدة الكثيفة. وكثيرا ما كان يستوقفه شخص من "التوراة" ليشتري منه قدحا أو اثنين في أمسيات رمضان. إلا أن مفاجأتي كانت لا حدَّ لها ذات يوم حين فوجئت بفلاح من نوع آخر يحمل صينية مماثلة: كان أحد زملائي في المدرسة وقد اختفى منذ زمن طويل ولم أعد أشاهده حتى أنني نسيته. وفجأة ظهر ليبيعنا اللبن. وضع صينيته عن رأسه بهدوء، ثم قدم الأقداح وهو يتحاشى النظر إليّ. وتشاغلت ُعنه بدوري.

*   *   *   *

ستعود هذه الأسماءُ كلها، ما تعرّفتُ عليه وما لم أتعرّف، بشكل أو بآخر في السنوات التالية. وستتخذ أشكالاً جديدة مختلفة بعد العام 1958 الذي كان طوفانا تغلغلت أمواجه في حياة كلِّ إنسان

آنذاك، بدءا من الأطفال ووصولا إلى العجائز. ومرورا بالفتيات طبعا، وبخاصة من اللواتي بدأن يرتدين "بناطيل" المقاومة الشعبية، فأزداد انتباهنا إلى أجسادهن أكثر مما كنا نفعل في الماضي. كنا مستثارين بالحدث بيننا وبين زملائنا. أما عجائزنا فيبدو أن الأمر لم يكن مهمّاً بالنسبة لهم. أذكرُ عجوزا لاجئا، أسمر الوجـه ذا لحية بيضاء، وقامـة قصيرة، مرّ بنا ونحن في زقاقنا أمام التوراة، ومعنا صورة الزعيم عبد الكريم قاسم ممسكاً بمدفعه الرشاش معلقاً بشريطٍ إلى كتفه، وعيناه فزعتين في انتباهةٍ غير مفهومة، وقد طُبعت على ورق خشن ردئ على عجل. وعرضنا الصورة على العجوز طالبين رأيه، فقال بدون تروٍ: "ماله مكهربـاً!". ولأن العجوز كان ينطق الكاف قافاً، فقد آثار ضحكنا لفظُه أكثر مما أثارتنا السخرية التي يتضمنها تساؤله. وثبتت هذه القاف في الذاكرة، لأكتشف أنها كانت أبلغ وصف لمهزلة عرضت نفسها بجدية تامــة.

سيظهر الشيوعيون فيما بعد من ظلمةِ ذلك المخبز المغلق، وأحدهم ولاشك ذلك الخباز الغليظ الرقبة والذراعين وزميلـه المتأفف ذات ليلة شتائيـة باردة، ويرتدون ملابس "المقاومة الشعبية" أو ربطات العنق الحمراء وهم يحملون الرشاشات، أو يجلسون في صدر الندوات التي كانت تقام في الساحات، أو يسيرون في المسيرات ذات الرايات، وسيتحولون إلى رمزٍ لكل ما هو مخيف ومهدِّد، وسنسمع بأن أكراد المعزل المنفيين عادوا إلى الشمال، لينحدروا فيما بعد إلى الموصل ويشاركوا في مجزرة تسحق فيها عائلات بأكملها بشبابها وأطفالها في سبيل "الثورة". أما الفلاح، بائع اللبن، فقد أعطته "الثورة" وظيفةً جديدة؛ لقـد تـرك الأرض واللبن والتحـق بالمدينة يترصد أعداء الثورة ليجرّهم في الشوارع.

* * * *

لم ينقلب الناسُ إلى أضدادهم كما قد يخيل إلينا، بل مُنحوا فرصةً وأملا لتغيير كونهم البائس، من مضطهدين ومهانين إلى متسلطين ومتسيدين. وكان لابد أن ينشبوا مخالبهم في ضحايا، وكان لابد أن يقدم لهم أحد ما الضحايا. وأعتقد ان كل ضربةٍ كان يضربها كل واحد من هؤلاء الصارخين أوالمزمجرين كانت انتقاما لجراحٍ عميقة ربما أصابته في مكان ما وفي أزمان أخرى وبيد أناس آخرين، ولكن ما أهمية هذا الفارق؟ مادام الهمُّ الأولُ هو الانتقام لجرح مهانة عميقة: جرح الضآلة.

سيفعل الصهاينةُ الأمرَ نفسه في فلسطين حين توافدوا عليها من معازل أوروبا ومهانة شوارعها ومدنها المتكبرة وأضوائها البراقة، فيطلق أحدهم رصاصه على فلاحين فلسطينيين عائدين إلى قراهم مساء صارخا "من أجلكِ يا شوشانا". وشوشانا هذه قد تكون حبيبته التي أغتصبها ألماني أو سحق رأسها أوكراني في معسكر اعتقال، ولكن أنّى لهذا الذي حوّلته المهانة إلى وحش أن يشعر بالمفارقة وبموقفه الهازل؟.

البشرُ متساوون كما يقال، ولهم الحقُّ نفسه في الكرامة والوطن والجنسية، وكل هذه الألفاظ المدرجة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. كل هذا صحيح، ولكنهم متساوون أيضا في ردود أفعالهم على الذلّ والمهانـة، أعني في تحوّلهم، حين يخلق منهم ذئبُ الاضطهاد والإذلال ذئابا. وليس من الأمور المدهشة، التي تبلغ فيها المفارقة قمتها الهزلية، أن نجد الآن شرطياً فلسطينيا سحقه الذلُّ في مخيم عين الحلوة أو الشاطئ، يتحوّل إلى جلادٍ خطر في شوارع غزة أو رام اللـه منتقما من صحفي أو طالب أو امرأة أو رجل أعمال أو أي ضحيـة يومئ إليها دمـه الملـوّثُ برغبـةِ الانتقام.

فـــي تلك الليالي الباردة التي كنت أنسلُّ فيهـــا مبكراً بحثـــا عن خبز للعائلة، لم يكن يخطر ببالي الخوفُ من شئ، ربما لأن وحوش العالم الخفي لم تكن قد ظهرت بعد، وربما لأن العالم كان يبدو أشدَّ أمانا لأن الناس لم يكونوا يفكرون بالسلطة بعد، أما الحكومات آنذاك فيبدو أنها لانشغالها بمباذلها وحساباتها حسبت أن لا أحد يجرؤ على فتح بوابـــة الجحيـــم الموكلـــة بها وحدها.

سيتغير سكان هذا الجحيم بين فترة وأخرى، وستتنوع هويات الداخلين والخارجين منه، ولكن من المؤكد أن الفردوس الذي حلم به كل هؤلاء الخاطئين والمجرمين والمبتذلين لم يكن يقـــع في أي زاويـــةٍ من زوايا هذا الجحيم.

VI

ستعود " بصرةُ" الخمسينات إلى ذاكرتي مرة أخرى بعد أن حوّل الاحتلالُ العراقي الكويت إلى بصرةٍ ثانية من النوع المهترئ الذي أبدعته ثورة العام 1958 وما تلاها.

كان د.عبد الوهاب المسيري الأستاذ في جامعة الكويت، وقد حضر سريعا بعد شهرين من وقوع الغزو العراقي ليأخذ مكتبته وأشياءه، منهمكا في نقاش "علمي" يحاول أن يقنع عدداً من الحاضرين بالضرورة التاريخية التي تقف وراء التهام دولـــة كبرى لدولة صغيرة تعتبر عبئا على التاريخ.

حدث هذا النقاش في بيت كويتي دُعينا إليه لتناول طعام الغداء في جو ارتبكَ فيه كل شئ وتوقف زمنه عند ساعةٍ محدَّدة محيِّرة: ساعةِ الاجتياح العراقي الذي لا يمكن عقلنته بأي وسيلةٍ بجنوده وراياته وادعاءاته.

ولأنني وصلتُ إلى مكان الدعوة متأخرا، فقد فاتني جزء من النقاش، ولكن بدا لي واضحا أن الأستاذ الجامعي كان يحاضر منذ زمن طويل أمام عيون مندهشة وعقول ذاهلة. لم يكن هذا الأستاذ يدرك تحديداً أن بين الحاضرين من فقد كامل ثروته، وأن بينهم من جرّدَه الاحتلالُ من وطنه وهويته، وبينهم مثلي من استعاد ذكرى الاقتلاع الأول من فلسطين، وباختصار لم يكن يشعر أنه أمام أناسٍ تقوض عالمهم بالكامل.

وفقدتُ حذري كالعادة، ولم أدرك عمقَ الخطر، فعقبت على محاضرة الأستاذ بتساؤلي عن معنى الكبيرة والصغيرة في ذهن المحاضر، وما إذا كان يعتبر نظاماً مثل نظـــام البعث نظامَ دولة كبيرة أم نظام عصابة. وكيف ينظر إلى الكويت بوصفها عبئا على التاريخ بانفتاحها

وديمقراطيتها ولا ينظر إلى الدكتاتورية التي هي الأحق بهذا اللقب من الكويت. فانتقل المحاضرُ فجأة إلى فلسطين، ربما لشعوره بأنني "فلسطيني"، فقلت له شيئا ربما سمعه في حياته لأول مرة. قلت "أنا كفلسطيني أقول لكم دعوا فلسطين جانباً لم أعد أريدها. السوط الذى جلدتم بـه كل الشعوب العربية، وأهنتموها وأفقدتموها كرامتها به ضعوه جانبا. أقول لك، وأيضاً كفلسطيني، أعطوا الشعوب العربية كرامتها وحريتها.. وستعود فلسطين، أمّا هذه الأكاذيب، وأمّا هذه الأوراق التي لعبتها كل الدكتاتوريات العربية على طاولة مطامعها ومغامراتها فلست مستعدا لتصديقها"

كان الأستاذ المحاضر في فلسفة التاريخ، والذي اقترح على نفسه خلال النقاش إجراءَ دراسةٍ "بنيوية" لفهم هذا التحول التاريخي، مذهولا أمام هذا الفلسطيني العجيب. وحتى أزيد ذهوله ذكّرته بشئ طريف.

قلت له "عشتُ في الخمسينات في "البصرة" وكانت آنذاك ثغر العراق الباسم، وكانت أوضاعها آنذاك تشبه كويت الثمانينات. فمن المسؤول عن إطفاء بسمة ذلك الثغر؟ لا أعتقد أنهم الكويتيون. اذهب إليها الآن، وانظر إلى شبه المدينة هذه قبل أن تتحدث عن الدولة الصغيرة والكبيرة.. وعبء التاريخ، وستكتشف أن العبءَ الضخم هو الذى أثقلت به الديكتاتورياتُ تاريخنا الحديث"

*   *   *   *

لم تكن العلاقة بين البصرة والكويت غائبةً عن طفولتي. ففي تلك الأيام أذكر الليالي التي كان فيها الزوّارُ الغامضون القادمون من الأردن يستعدون لرحلةٍ ليلية إلى الكويت عبر الصحراء، فيضعون الخناجر في أحزمتهم، ويلفون وجوههم بالكوفيات، وينطلقون فجراً .

كان المهرِّبون أعلاما في تلك الأيام. ومن ذلك الذي لا يعرف "الغضبان" الذي ترك عدداً من الذين تعهد بتهريبهم إلى الكويت طعما للموت عطشا وجوعا في الصحراء؟ ومن ذلك الذي لا يعرف من هو "محمد البهلوان" المهرِّبُ الأحول الذي كان مصارعا قديما على النمط التركي والشهير بأنه أكثر المهربين أمانة؟

بصرةُ التهريب والمقاهي الرطبة والأسواق الموحلة والملاهي ومنتجع الريفيين ذوى العقال الضخم والشوارب الكثة ورائحة سوق تجار الأقمشة العطنة التي لا تُنسى، والسفنُ وشركات النقل والوساطة، هذه البصرة كانت شيئا مختلفاً عن "بصرة" الثورة المقفرة التي خلت من المتنزهين والسفن وأغلقتْ مكاتبها، وهدمتْ قصورها الفينيسيّة على الشاطئ، وتركت شوارعها المتآكلة للمصادفات، وأناسها للهرم في مشارب عتيقة وقذرة، وكأن جائحةً حلت بها، وأصابت كل شئ بالتبلد، وحكمتْ على كل شئ بالتفاهة والضحالة.

في الأشهر الأولى لثورة تموز 1958 حمل "محمد البهلوان" قفّة من سعف النخيل مملوءةً بالمسدسات وجاء يعرض بيعها على اللاجئين في مقهى "رجا" الذي كانوا يتكاثرون فيه دائما. وفسّرَ البهلوان عرضه بقوله أنها ضرورية لكل فرد، وبخاصة في أيام الفرهود. واستفسر بعض الحاضرين عما تعنيه لفظة "فرهود"، فأضاف البهلوان إلى معلوماتهم طرفا من تاريخ هذه اللفظة في الذاكرة العراقية؛ الفرهود حالةٌ يندفع فيها الناسُ الى نهب بعضهم بعضا، ويُعلّق القانونُ، ويختفي أفراد الشرطة، ولا يعود أمام الإنسان سوى أن يدافع عن نفسه وبيته بيده، وإلاّ "فرهدوه" أى نهبوه، وربما قتلوه. ولأن البهلوان يتوقع مجئ هذا الفرهود الذي

يشهده العراقيون بين عقد وآخر، فقد وجد الفرصة مناسبة ليبيع اللاجئين هذه الأسلحة ليدافعوا عن أنفسهم وقت الحاجة.

فلسفة البهلوان لم تكن بعيدة عن المنطق، وهو الخبير كما يبدو بحروب الشوارع بين "الأشقياء" وبفرهودٍ أو اثنين مرّا في تاريخ العراق، وبخاصة وأن هذه اللفظة محببّة إلى العراقيين إلى درجة أن بعضهم يطلقها على ولده تيمّناً.

يقول لي "هاشم الرجب"، وهو أحد عشاق المقامات العراقية، أنه شهد في حياته فرهودا من هذا النوع بل وشارك فيه. كان ذلك في أعقاب فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني (1941)، وعودة عبد الإله، الوصيُّ على العرش، من الأردن على دبابة بريطانية، وبحماية نشامى وجنود حسين ذوي الكوفيات الحمراء والجدائل البدوية، ويومها كما يقول"الرجب" بدأ "اليهود" يستهزئون بالعراقيين وفشل ثورتهم، فاندفعت الجموعُ ذات صباح يوم مطلقة نفير الفرهود الى متاجر وبيوت اليهود الأثرياء، ونزلت بها سلبا ونهبا، وكان الرجب بين النهابين، إلاّ أنه لسوء حظه تدحرج في بداية أول غزواته عند مدخل مخزن وأغمى عليه، وحين صحا من إغماءته وجد المكان خاليا، فانسحب إلى بيته خاوي الوفاض من النهب ومن "سدارته" أيضا. وفي ذلك الزمن انطلقت الأغنية العراقية الشهيرة من نوع "المربع" التي تنتهي لازمتها المتكررة بهذا السطر:

حلو الفرهود كون يصير يوميّه !

أي أن الفرهود جميل وليته يصبح عادةً يومية..!

وتختلط بصرةُ "البهلوان" و "الرجب" ببصرةِ أواخر الثمانينات التي اندفعت لفرهدة الكويت. قال أحد الذين أجبروا على النوم في المركز الحدودي "صفوان" بين البصرة والكويت ليلة أول أغسطس 1990، أنه صحا من نومه وتطلع إلى الصحراء أمامه، فوجدها تعجّ بالجموع، لا الجنود المنطلقين بشاحناتهم فقط، بل وبالناس من مختلف الأزياء والألوان المندفعين والمهرولين سيراً على الأقدام أو على الدواب نحو الكويت.

"الفرهود" ليس أمرا مستهجنا كما فهمتُ من تردد أصدائه في الذاكرة العراقية، بل هو فعلٌ من أفعال الحظ أو الصدف الجميلة. إنه أشبه بحظ أعمى يصطدم بك وأنت في أحد منعطفات العمر. ولا أشكّ أن العقل "الفرهودي" هو الذي وجّه العراقيين إلى الكويت، بعد أن "فرهد" العراق نفسه.

* * * *

كان أستاذ فلسفة التاريخ البنيوي جاهلا بقيمة الموروث الشعبي، وجاهلا بفلسفة الفرهود العراقي، فاخترع مصطلحاً من عنده كما يفعل دارسو الأحزاب العربية الذين يعكفون على قراءة البيانات والتصريحات اللفظية، لا البنى التحتية لهذه الأحزاب التي نشأت على مفاهيم "الفرهود" وأمثاله مثل مفهوم "الشقاوة" أو"الفتوة" في التاريخ العباسي.

ربما تفتح دراسةُ هذا المفهوم الأخير صفحةً كاملة مجهولة في تاريخ الأحزاب العراقية، شهدتها أزقة "بغداد" و "البصرة". فقد شهدنا نحن اللاجئين الصغار انبثاقَ تحوّلٍ عجيب في بنية الأحزابِ العراقية، وربما يفسِّر هذا التحوّلُ ما حدث بعد 14تموز 1958. فقد توالدت ظاهرة طريفة، وهي احتواءُ الأحزابِ لمن يُطلق عليهم اسم "الشقاوات" أو "الأشقياء" الذين

يكسبون عيشهم بعضلاتهم في الأحياء المغلقة، إمّا مستأسدين على الفقراء، أو مبتزين للأغنياء. ورأينا عدداً من هؤلاء المشهورين عادة يتحول بين عشية وضحاها إلى "شيوعي".. أو "بعثي" أو "قومي"، ويأخذ بقيادِ مجموعاتٍ وظيفتها الوحيدة هي خوض المعارك مع الأحزاب المنافسة، إما لتخريب مهرجاناتها، أو قتل البارزين بين أعضائها. وكان بعضهم يبحث عن "المعارك" متعمداً، فيسير في الشارع متحدّياً، ممسكا بيده مسدساً ملفوفا بورقة صحيفة.

أعتقد أن هؤلاء "الأشقياء" لم يتوقفوا عن التناسل، ولا توقفت الأحزابُ عن الاستناد إلى عضلاتهم، رغم اختلاف تسمياتهم هنا وهناك، فهم في البصرة "الشقاوات" وهم في بيروت "القبضايات" وهم في القاهرة "الفتوات". ولم تشذ منظمة التحرير الفلسطينية عن هذا الأمر، فكان لها من هؤلاء العدد الوافر تحت شتى التسميات واشهرها "الزعران".

وقد رأينا فيما بعد كيف أن هؤلاء "الشقاوات" لايتوقفون عند حدٍّ كونهم أدواتٍ يوجّهها قادةُ الحزب أو المنظمة المهذبون، أصحاب النظارات الطبية والمظهر اللطيف، بل يتجاوزون هذا الدور فيلتهمون هؤلاء المهذبين، ويحلّون محلهم، ويرتدون ثيابهم ويصطنعون لهجتهم، ويأخذون من مواقعهم هذه بالتهامِ بقية منظومة الحزب أو المنظمة الساذجة التي لا تلاحظ أن عيون "الجدّة" أصبحت واسعةً بشكل غير طبيعي، وان أنفها أكبر من المعتاد، وأن لها أنيابا بارزة..!

قد يكون هذا مجازاً شعرياً، إلا أنه يلمس عمق الواقع المأساوي للأحزاب العربية المتغلبة التي شاهدناها تصعد إلى السلطة هنا وهناك، وما أن تنتهي ذئابها من التهام مهذّبيها ومثقفيها حتى تجرَّ بقيتهم بالأطواق وراءها ليهذروا وقت الحاجة بطموحات الأمة العظيمة ومستقبلها المشرق.. لو آمنت فقط وذابت بمخلصها العظيم.. القائد "الضرورة"، الذئب، الذي حلمت به البشرية منذ عصر الكهوف.. وصولا إلى عصر الصاروخ.

لو كان "محمد البهلوان" حيّاً، لقاده ذكاؤه إلى حمل سلّته بمسدساتها وجاء إلى الكويت يعرض على الكويتيين المسدسات محذرا إياهم من " الفرهود " والمفرهدين " الذين جعلهم الأستاذ البنيوي صنّاعا للتاريخ.. ولم يعرفهم حقا إلا "البهلوان" الأحول صاحب السلة.

VII

أحـــدُ اللاجئين، وفـــي سنواته الأخيـــرة، وكان قد بلــغ مـــن العمر عتياً، سألناه عابثين ربما عن مستقبل الأيام، وعما سيحدث لهذا العالم وكيف يراه الآن، فتحسر لأنه لا يملك كتاب "أبو معشر الفلكي"، وقال لو كان لديه هذا الكتاب لأخبرنا بما سيحدث (أبو معشر فلكي من العصر العباسي لديه كتاب " الألوف " وكتاب في قراءة الطالع هو المعروف باسمه).

إلاّ أن هذا اللاجئ لم ينس أن يضيف ملحوظة عن العصر الجديد القادم، عصر الصاروخ أو "السروخ" المخيف، بلهجته القروية، والمدمر. وتحدث عن هذا "السروخ" بلهجةِ من يـــرى فيه نذر القيامة. ولـم يمضِ على هذا الحديث من الزمن إلا أقله، حتى كانت الأيدي تحمل هذا اللاجئ من سكان "التوراة" إلى مثواه الأخير في مكانٍ كنا نجهله في تلك اللحظة وحتى هذه اللحظة (نحن لا قبورَ لنا) فلم نكن نعرف أين يدفن اللاجئ. ولو لم أشاهد قبرَ أخي وقبرَ أبي في ما بعد لظللتُ على اعتقـادي أن ثمة ملائكة تحمل اللاجئين وتذهب بهم إلى حيث لا ندري.

*   *   *   *

في أيام معسكر الاعتقال البريطاني المهجور، كانت المدافنُ تقع خارج المعسكر على مرتفع، واعتقـــد أن الرمـال طمرتها الآن بكل شواهـــدها الكلسيّة. هناك اختفى إخوة وآباءٌ وأخواتٌ، ولم تعد هناك علامة تقود إليهم، شأنهم في ذلك شأن قتلى الأتراك الذين تناثروا حول

معسكر "الشعيبة" في الحرب العالمية الأولى ودفنوا هناك. ولا أعتقد أن حال من ظل من الأحياء يختلف، فالعلاماتُ التي تقود إليهم ما لبثت أن انطمست أيضا. ولن تحتفظ إلا ذاكرتي بأخي الصغير المولود في "البصرة" والذي تابعته خطيئة اللاجئ إلى إيطاليا حيث أنهى دراسته الجامعية هناك في العام 1990، بالضبط في الشهر الذي غزا فيه العراقيون الكويت، فلم يجد مكانا يرحل إليه، وأخيراً أُرسل بالقوة إلى "ليبيا" لينام في شوارع طرابلس ردحاً من الزمن، قبل أن يُعيّن طبيباً في مستوصف "العربان" وتختفي أخباره بعد ذلك ..وتنطمس.. فيقال أنه مرض فجأة وتوفي.. ويقال أنه شارك في اجتماع سياسي تمت تصفية كل من حضره رمياً بالرصاص.. ولا أدري سوى أن أية علامة تقود اليه لم تعد موجودة.

ولن تحتفظ إلاّ ذاكرتي بشخص اسمه "فايز" كان قد حوّلَ ساحة "التوراة" التحتية الى "مصنعٍ" لأحذيةٍ عجيبة، أحذيةٍ مصنوعة بشكل كامل من مطاط "بورونيو" و "سومطرة" الذي حولته الصناعة الحديثة إلى عجلاتِ سيارات، وحوّل هذا اللاجئ ما تهرّأ منها إلى "أحذيةٍ" يحزمها ويحملها ليبيعها في أمكنة نجهلها. ولكنه كان يمضي بها إلى الأعراب المحيطين بالبصرة كما أظن، لأن آخر مشهد له كان حين أتوا به من الصحراء قتيلا ذات يوم. وقيل يوم ذاك أن أحد أحذيته تسبّبت مساميرُه في تسميم قدم أعرابي ثم موته، فظل قومُ الأعرابي يبحثون عن بائع الأحذية حتى وجدوه فقتلوه.

* * * *

تلك أحداثٌ جديرة باللاجئ. أي أنها تنسجم مع ما هو فيه من وضعية المغمور والمجهول التي لا تعني شيئا لهذا العالم الواسع. ولكن حدثاً واحداً يدخل تعديلا على هذه الصورة.
ذات يوم عاد أبي مبكراً من رحلته لشراء أقمشة كان يتاجر بها، وكانت عودته مفاجئة وغريبة، لان مثل هذه الرحلة تستغرق في العادة نهارا كاملا. ولكن العجيب لم يكن قصر الرحلة بل سبب العودة.

سألته أمي عن سرِّ عودته خاوي الوفاض، قلقةً من أن يكون العجوز ضيّع رأسماله في الطريق أو التقطه نشال من جيبه، فأجاب بصوت متهدج "أما سمعتِ الأخبار؟.. العالم سينتهي في أي لحظة.. ستقوم الحرب الذرية.. وهي حرب لن ينجو مها أحد.."

حدث هذا خلال أزمة الصواريخ الكوبيّة التي وقف فيها العالمُ على شفا حفرة الجحيم النووي، وكانت وكالات الأنباءِ تتابع خطَّ سير السفن الروسية المتحركة لفكّ الحصار عن كوبا وهي تقترب من الاميركية التي استنفرت ترسانتها النووية في العام 1960.

كان وجهُ الوالد مصفّرا بالفعل، وصوته يرتعش. كان خائفاً بجدية تامة. وبدا لي الأمرُ مضحكا إلى درجة أنني سخرتُ من مخاوفه العجيبة هذه. فالعالمُ كان يبدو لي شاسعا إلى الحد الذي لا يمكن أن تصيبنا فيه شظية ذرية أو إشعاع. إلاّ أنه كان واثقا تماما من أن اصطدام الروس بالأمريكيين لن يبق ولن يذر حين سمع أنباءَه وهو في طريقه لشراء قماشه، فعلّق مشروعه اليوميّ وعاد إلى البيت، لا أدري لماذا، أو ماذا قرر أن يفعل غير أن يكون في بيته في لحظة الانفجار النووي.
سأتعلّمُ فيما بعد صدقَ هذه الرؤيا حين اكتشفُ كيف أن انفجارَ مخيّلاتٍ بعيدة عنا بضعة قرون في الماضي سيقوّضَ وجودنا الصغير في القرن العشرين.

هل كان اللاجئ يعيش أحداثَ العالم بهذه الدرجة من الحسّاسية بحيث يشعر أن الجحيمَ سينقضُّ عليه إذا اصطدمت السفنُ الروسية بالاميركية على شواطئ كوبا؟ أعتقد أن هذا كان جزءا من اللامعقول الذي يعيشه هذا الفلاح. فهو يخشى حرباً ذرية بعيدة قد تشمل الكرة الأرضية كلها (تحجب الشمس وتحدث الشتاء النووي) ومع ذلك لم أكن أجده يعيش حياته على مستوى هذا الوعي الشامل نفسه. إنه لا يغيّر نمط حياته، ولايؤثث مسكنه حتى، أو يعي في أي منطقة بائسة يعيش في هذا العالم.

هذا الفلاح نفسه الذي أحسّ بالخطر الذري، كأي كاتبٍ غربي نموذجي، لم يتصرف في العام 1948 بوعي يوازيه. ففي تلك الأيام، وحين كان منهمكا بوجوده الضئيل، وجودَ الأقزام في حبات الجوز التي يقيمون فيها، أو يتردّد على سجن عكا لزيارة سجناء من أقربائه، أو يجرّه الإنكليز إلى سجن حيفا للتحقيق معه في أمر بندقية صدئةٍ ملقاة في أرضهِ، كان مطارُ اللد يعجُّ بالمسافرين من أبناءِ العائلات الذاهبين للدراسة في هارفارد وكامبرج. وسأظل أذكرُ تزامن هذه الأحداث، ففيها كان سرُّ خرابِ حياة الفلاح الفلسطيني الذي شغلوه بحشو بندقيته العثمانية وهم يحملون حقائبهم للسفر إلى المستقبل، وابنه الشاب لا يستطيع إلاّ الوصولَ بالكادِ إلى الصف السابع ثم يلتحق بالعملِ في محطة قطار حيفا.

وسيقف هذا اللاجئُ الفلاحُ في ما بعد وبعنادٍ أمام فكرة كانت ستغير مصيره ومصير أطفاله تغييرا جذريا حين اقترح المسؤول البريطاني في محطة القطار على الشاب النشيط الذي يجيد الإنجليزية إجادةً تامة أن يأخذه هو وعائلته معه إلى قبرص، لأن هذا البريطاني كان يعرف أن لا أمل للفلسطيني أمام هذا الحشد المتنوع من الذئاب التي نمت تحت الحراب البريطانية، وستنطلق قريبا لاقتلاعه.

ووقفَ الفلاحُ بعنادٍ أمام "المجهول" واختارَ أن يظلَّ في إطار"المعلوم"، أي في القرية الصغيرة التي تقرّرَ مصيرها سلفاً منذ أن كتب يهودي عجوز بيده "لنسلك أعطي هذه الأرض" قبل ثلاثة أو أربعة آلاف عام.

* * * *

أعتقد ومن دون خروجٍ على حدود المعقول، أن ما يحدّد المصيرَ هو ما تملكه من معرفةٍ في هذه اللحظة أو تلك. وليس صحيحاً تماماً أن السلطة تنقلت بالتدريج من القوةِ العسكرية إلى القوةِ الاقتصادية ثم وصلت أخيراً إلى المعرفة كما يرى الأميريكي المعاصر آلفن توفلر. كانت المعرفةُ هي صاحبة السلطة دائما منذ أن أمسك الإنسانُ بشظيةِ حجرٍ وحتى هذه اللحظة.

سأفترض أن هذا "الفلاح" لو كانت لديه معرفة أوسع، أي لو كان يعرف ما يحدث في منتصف القرن العشرين تحديداً على صعيد العالم، لامتلك على الأقل سلطةً على مصيره بدل أن يبقى بيد المصادفات التي قذفته شرقاً إلى حيث "يعرف" لا غرباً إلى حيث "يجهل" .

ما كان يعرفه حدّدته شروطُ القرون العثمانية التي لم تشهد فجراً، أي أن تشرّده كان معطى مضمراً في سياق هذه المجريات التي بدأت ترتسم منذ أن اقتحمت القبيلةُ التركية أسيا الصغرى، وهيمنت على منطقة الأناضول، ولتبدأ بعد ذلك رحلة العثمانيين وتحدّد شروطَ المنطقة كلها بما في ذلك أجزاءً من أوروبا، وسيكون متأخرا جداً هذا الوعي الذي استيقظ فجأة على عالمٍ شاسع مهدد بالحرب النووية، إلى درجة أن الإنسان في ظلّه لم يكن يستطيع فعلَ أي شئ لحماية نفسه أو تقرير مصيره وهو مجرّد لاجئ قابع في مكان مجهول من أعماق جنوبي العراق.

هل تغيّر الأمرُ في مصائرنا حتى هذه اللحظة؟

حين أفكّرُ بهذه الغزوة العراقية، وبخطابها الشبيه بتعاويذ السحرة وكلمات التمائم والأحجبة التي لا مدلولَ لها في الواقع، يتراءى لي مشهد ذلك المدرس البائس "زكي الأرسوزي" الذي هبط من "الإسكندرون" في العشرينات إلى دمشق، والذي لا أدري من منح تهويماته وتلاوين ذهنه لقب فلسفة، فأرى في هذا الهبوط وتهويماتِ ذلك الطريق سببَ هذه الكارثة التي انقضّت عليّ مع الغزو العراقي للكويت.

ربما لهذا السبب تتحول المعرفةُ المتأخرة إلى عبءٍ ورغبةُ الفعل إلى رغبةٍ طائشة تودُّ أن تنطلق مهما كان الثمن ومهما كانت المسارب. وإنه لأمرٌ بطولي أن يبدأ الإنسانُ كفاحه العظيم للخروج من هوّة "اللاجئ" التي ألقوه فيها إلى "مرتفع" الإنسان الذي تحتشد فيه الكائنات.

بطولةُ هذا الكفاح الذي سيحمل معه شتى المفارقات ستتجلى مبكراً في هذه الدعوة ذات المعنى: أن يمسك الفلسطيني بزمامِ قضيته. فالأحزاب العربية والحكومات لم تقدم له شيئا، وإسرائيل ستمتلك بعد عشر سنوات قنبلتها النووية، ولن يبق أمامنا من أمل كما خطب بذلك أحد زعماء الطلبة ذات يوم. وعزّزَ هذه الفكرة، وإن بشكل هزلي، عبد الكريم قاسم، الذي دعا إلى تكوين جيش تحرير فلسطيني مخطّطا لإحداثِ تحريرٍ مباغتٍ يشبه انقلابه العسكري، ذلك الذي أصبح معياراً لكل تغيير، حتى لو كان رصفَ شارع .

وأعتقد أن هذا العسكري ذا الوقفة المتكهربة والذي منحه الشيوعيون لقبَ الزعيم الأوحد، لو كان بائعَ جبنٍ مثلا، لدعا إلى المزيد من تصنيع الجبن واستهلاكه بوصفه الطريقة الوحيدة لتغيير العالم أو تحريره. (صاحب مطعم فول في عمّان علّق تعليماتٍ مطولة عنوانها كيف تقضي على إسرائيل بأكل الفول. ولا أدري إن ظلت هذه التعليمات معلقة حتى الآن أم أخفاها بعد أن أكتشف ملكه طريقةً أخرى للقضاء على أكلةِ الفول).

هكذا بدأ ينمو الشعور بأن الصراعات العربية هي"فخّارٌ يكسّر بعضه" وهو تعبير بشّرَ بهِ زميلنا في الجامعة محمد أبو ثلاث في تعليقهِ على معركةٍ بين طلبة بعثيين وشيوعيين في ساحة الكلية. وسينتهي الأمرُ بزميلنا إلى التحول إلى زعيمٍ في إحدى المنظمات الفلسطينية في أواخر الستينات مع شعارٍ آخر كان كثيرا ما يردّدهُ على مسامعنا:"لن يحرّرها إلاّ واحدٌ يخرج من المخيم أتخمه العدس"، وسيلقى محمد مصرعه بعد ذلك بشكلٍ غامض في أحد شوارع عمان في العام 1969، وسيقال في ملصقٍ إعلاني أنه استشهد في عمليةٍ فدائية، وسأرى أمه وأخواته على صفحات صحيفة يتحدثن عن الشهيد الذي كن يجهلن أنه يقوم بعمليات فدائية، وسيقول آخرُ أن منظمته اغتاله في الشارع، وسيقول أحدُ زملائه في منظمته بلهجة ذات مغزى "لم يكن مجرد فردٍ بل كان وراءه أحد ما"، وأثارت هذه اللهجة ريبتي وشكّي في ملصقات الشهداء التي اعتدنا على رؤيتها، وكانت تثير فينا أحياناً رغبة بالاستشهاد أو كتابة قصيدة على الأقل.

كانت الفكرةُ صحيحة، ولكن تحذيرات الخارجية الأمريكية في العام 1950 من "خطر اللاجئين" الذين لابدّ من اتقاءِ تذمرهم وإيجادِ وسائل لدرء انفجارهم وتوترهم، ما يزال يدفعني إلى التساؤل عن نوعية الوسائل التي استخدمت منذ ذلك التاريخ لتصريفِ هذه الطاقة المتفجرة أو تخريبها بالأحرى.

صحونا على عالم "ينبذنا" فوجدنا منظماتٍ تنتشلنا من هوّةِ اللاجئ وترفعنا إلى ربوة الإنسان، وبأغراءٍ أشدَّ جعل حتى العراقيين يستبدلون تعبير"إخواننا الفلسطينيين" بتعبير"اللاجئين".

في أواخر الستينات جاء إلى الكويت من سيُعرف بعد ذلك باسم "عصام السرطاوي" مرتدياً ثوب الفدائي الأخضر بلا مبرّرٍ بالنسبة لي على الأقل.

ودعاني صديق للذهاب والاستماع إلى ندوةٍ مسائية يعقدها هذا القادم من أرض المعركة. كان الرجلُ يجلس إلى طاولة والى يمينه فتاة والى يساره شاب. وكانت دعوته أنه جاء ليقدّم لنا ماسماها "الهيئة العربية العاملة لتحرير فلسطين" لتكون بديلا عن الأحزاب والمنظمات

الفلسطينية المتذابحة حسب تعبيره؛ الأمر المطلوب الآن هو تهيئة الجو للتحرير وليس التحرير ذاته. وبعد إن انتهى صاحبنا الذي سينتهي الأمرُ بذبحه في "الشبونة" بعد سنواتٍ طويلة من حديثه، أومأ إلى الشاب الجالس إلى يساره، فتناول هذا طبلا صغيرا وبدأ يقرعه ويغنيّ أغنيةً أذكر أنها كانت تتحدث عن الأعلام العالية للهيئة العاملة، وكانت تنتهي بلازمة جماعية متكررة: يرددها الجميع:عالية.. عالية.. !

فـــي أيام الدراسة الجامعية، كما تذكرتُ في تلك الأمسية، كان "السرطاوي" هذا نفسه ينشط للقاء الطلبة داعياً إلى تأليف حزبٍ عربي قومي جديد، وإلى جانبـــه هذه الفتاة نفسها، ولكن تلك اللقاءات لم تكن تنتهي بطبلة.. وأغنية.

كان رأي "السرطاوي" بعد انتهاء الأغنية وحوارٍ قصير، أن معيار ضخامة أو صغر التنظيم الفدائي تحدّده الأوراق الخضراء التي يملكها.. أي كمية النقود، وما يجري هناك في عمّان بين التنظيمات "مذبحة" ..!

تلك كانت إحدى مسارب إغـــراء اللاجئ للخروج من الهوّة. وسيتقدم الكثيرون الذين نبتـــوا، ولا نعرف كيف، بملصقٍ وشعارٍ واسم منظمـــة مـــا، وتختلط الأمـــور.

كانت الفكرة صحيحـة؛ إن على اللاجئ أن يمســـك بزمام قضيته. ولكنني لا أعتقد أن السلالم التي بدأت تهبط فجأةً من كل الاتجاهات كانت تقود الى "ربوة" الإنسان، بقدر ما كانت تقود إلى معسكرات يذهب إليها صديقٌ متحمس "لا يهمّهُ أين يسقط ومتى مادام سينهض بعده من يحمل السلاح"، وليتحول هذا الصديق إلى ملصق، وإلى غزالٍ يمضي سريعا في قصيدة للشاعر الشاعر "معين بسيسو" كتبها بمناسبة مقتله على سفوح جبل "صنين" ليستحق أن يكون شاعراً للثورة، في مواجهة شاعر آخر هو "محمود درويش" كان قد دخل السباق للفوز بهذا اللقب.

في تلك الأيام احتشد بشرٌ لم يعرفوا من يقودهم.. وإلى أين.. حتى هذه اللحظة. واحتشد كتّابٌ وشعراءٌ يدورون في دائرة ضوء الزعيم السياسي وفي ظلّهِ بعيداً عن الملموس الفلسطيني؛ أعني بعيداً عن المضمون الإنساني للتجربة الفلسطينية.

VIII

في أحد أيام ديسمبر من العام 1990، وجنود الاحتلال العراقي يتغلغلون في ثنايا وجودنا في الكويت، ويقتحمون لغتنا وعاداتنا ويومياتنا، ويقيمون كأي شئ بلا معنى في الطرقات وتحت الجسور، لم يكن أمامي سوى الجدران الأربعة: المكتبة التي أصيبت بالصمت. فكلُّ شئ منذرٌ بالخطر: جرس الباب والهاتف، ووقفة الشاحنة، وإشارة الجندي على الحاجز.
كل أشيائنا الأليفة لم تعد أليفةً أو ذات معنى.

الخروجُ إلى الشوارع خروج إلى الحطام والخراب، والدخولُ في الكتاب يبدو هرباً. "فجر الضمير"، كتاب "بريستد"، ظل ملقى على طرف المكتب. وهذه الحشود البشرية من الأصدقاء القدامى لم تعد رواياتها قادرةً على اختراق الصمت المفروض. خطابُ الغزو لم يكن مذهلا بوقاحته، بل بجهله العميق، بهذه الضحالة التي تتسم بها المدنُ المتهرِّئة، والغبارُ الأبلهُ الذي يقتحم عليك فضاءك، وهذه اللغة التي لا تشير إلى أي مدلول.

لم يكن لكل هذا أي معنى يختصره، ليس لأنه أكبر من المعنى، بل لأنه خارجه تماما: خارج التاريخ والحدث والأطفال والحدائق والقصائد والأحلام والصحف، ودورة الليل والنهار.. خارج الجمال الذي يعنيه الصباح وتعنيه الظهيرة ويعنيه المساء، وعملكِ اليومي لاستكمالِ كتابة نصٍ أو الإعداد للسفر، أو الحلم بامرأة عاليةٍ في أقصى التعب.

كان المحتلون يجرّدون الأشياءَ من حواسّها وثقلها، ومعها نحن أيضا نتجرد من حسّيتنا، ونحوّل إلى ألفاظٍ، كلُّ العالم يكاد يتحوّل إلى رغوةِ ألفاظ، دال بلا مدلول. ولعل هذا الإصرار على محو الأشياء والناس والشجر والشوارع والذكريات لهو فعل الاغتصاب والاستبداد مذ كانا. هما لا يتعاملان مع المدلول، إنهما يمحوانه. فهو الوحيد الذي يعرّي تجريدية اللفظ وخواءه ولا معناه.. أسماء.. وأسماء.. وأسماء بلا مسميات. هذا هو عالم الدكتاتورية؛ هذا هو العبث في أصفى معانيه.

* * * *

المتعيّنُ والملموسُ، والإنساني غير الفائض، هو جنديٌّ عراقيٌّ يقف على رصيف الشارع حاملا لعبة طفل، لعلّه فكّرَ أن يحملها إلى طفله حين يعود. من أين جاء بها؟ ربما كانت من

المخازن التي اقتحمها هو وضباطه، أو ربما كانت مما اشتراه.. لا أحد يدري. ويلوّح الجنديُّ للسيارات العابرة متوقعاً أن تقف سيارة لتقله، تماما كما يحدث في شارع أي مدينة عراقية، من دون أن يدري أنه لم يعد جنديا بل لفظةً مجرّدة في خطابِ الدكتاتورية التي دفعته إلى الكويت. وفجأةً تنطلقُ من سيارةٍ مسرعة زخّاتُ رصاص، ويترنح الجندي وقد اتسعت عيناه دهشةً، ويهوى على الأرض مرتطماً بأسفلت الشارع.
جثةٌ وبركةُ دماءٍ ولعبةُ طفلٍ؛ كم هي شاسعة المسافة بين الجندي وموته وهذه اللعبة التي لم تصل إلى طفله ولن تصل أبدأ؟

المتعينُ والملموسُ والإنساني غير الفائض، هو شابٌ كويتي يُعتقل ويغيب طيلة أسبوع، ثم تعود به سيارةُ المخابرات العراقية إلى منزله وتقف أمام الباب. ويأمره رجلُ مخابرات ذو كرشٍ ومعطفٍ قصير أن يهبط ويمضي إلى منزله، فيهبط الشاب غير مصدقٍ ما يسمع ويرى، ويتجه إلى الباب ووراءه رجل المخابرات المتمهل، فيتطلع إليه في حيرة، فيومئ له أن واصل سيرك، فيواصل سيره، ويقترب من الباب، ويتردد قبل أن يضغط الجرس ثم يضغط.. وهنا يسحب رجل المخابرات مسدسه المضغوط بين كرشه وحزامه ويصوّبه إلى رأس الشاب من الخلف ويضغط.

ويترنّح الشابُ وقد اتسعت عيناه دهشة، ويهوي على الأرض مرتطما بعتبة الباب في اللحظة التي ينفتح فيها، وتفاجأ فيها امرأةٌ بمشهد زوجها وهو يحاول أن يتشبث بالعتبة.. فتصرخ وهي تحتضن الرأس الدامي.

ويستدير رجلُ المخابرات عائداً إلى سيارته.. وينطلق مخلفاً هذه المسافة الشاسعة بين امرأة وزوجها الذي لن تصل إليه أبدا.

* * * *

تلغو الدكتاتوريةُ دائمـــا بالوحـــدة، ويلغو منظّروهـــا بالقوميـــة الشاملة محتقرين التفاصيل، أي ملامح الملموس.
يقول "حازم صاغية" : "الواقع في سائر معانيه هـــو الضحية الأولى بامتياز لمثل هذا الفكر القائم على تغييبه" (الحياة - 96/2/7) وأضيف، وتحويله وتحويل البشر إلى ألفاظ؛ يمرون بالواقع ولا يرونه، أو يمرون به ولا يفقهون له معنى، مثلما حدث مع كثير من "مثقفي" النهضة والحداثة في شتى العواصم العربية الذين اعتادوا عدم الربط بين اللفظ ومدلوله، أو بين الاسم والمسمى، فرقصوا رقصتهم الهمجيـة تحيةً لصدامَ حول نيرانٍ يبعدون عنها آلاف الأميال. أما نحن الأقرب إلى الملموس، سواء ذلك الذي فقدناه، أم ذلك الذي أصبحنا نفقده يوميا، فقد كانت تؤلمنا هذه المسافات الشاسعة التي أحدثها الغزو الهمجي بين اليد ولعبة الطفل، وبين الزوجة وزوجها، ولم تغمرنا رغوةُ الألفاظ، رغوةٌ قومية من هذا الصنف اختلقها، وليس الأمر مصادفةً، عددٌ من معلمي اللغة.. لا من معلّمي القيم الإنسانية.

هكذا بدا لي المغزى عظيماً لمشهد ذلك الإنسان الذي شاهدته ذات يوم يخرج عصراً من وراء سور بيته ممسكا بخرطوم مياه، ويبدأ متمهلا بري الأشجار المزروعة أمام البيت كما اعتاد دائما غير ملقٍ بالا للشاحنات العسكرية وهي تتمهل في سيرها.
كان اهتمامنا قليلا بما يجري حولنا، ليس لأننا أقل الناس خوفاً، بل لأننا لم نفقد أنفسنا، ولم نتخيل أنفسنا أو وجودنا ألفاظا. كـــان الصمتُ ووجودنا الملموس هذا، والذي يؤكده اهتمامنا بشجرة، أو بإحراق القمامة أو بأبعاد الأطفال عن مشهدِ جندي بلا معنى، يلخص لا معنى هذه اللحظة الساكنة. إنه الملموس الذي يواجه المحتلين المتوتري الأعصاب دائما.

* * * *

على الطريق الصحراوي الممتد بين بغداد وعمان لففتُ نفسي بمعطفي إلى جانب السائق الثرثار وهو ينطلق بسيارته في أعماق الليل. كانت النجوم على يميني والمرتفعات الداكنـــة وأمامنا الشارع العريض. وأخرجتُ غليوني وبدأت أدخّن تحت النجوم (كانت ندرةُ السجائر هي السبب في لجوئي الى الغليون).
لم يكن أمامي أنا "اللاجئ" سوى البحث "ملجأ" آخر، والخروج من مجريات الأحداث العابثة هذه التي بدأ إعدادها في الثلاثينات حين انحدر "زكي الارسوزي" من "الاسكندرون" إلى "دمشق" حاملا صورة العالم الواحد "الثابتة"، الجوهر الذي لا يتحوّل، صورةَ عالمٍ تضاءل فيه الوجودُ البشري إلى لا شئ، أو إلى فائض لا مبرِّرَ له، و ليأتـــي حملةُ هذه الصورة ويقوضوا وجودي في التسعينات. ولتشارك قيادةُ منظمة التحرير في هذا العبث عامدةً لتصفية حسابات داخلية بين "مافيوساتها" فتلقي على "الفلسطيني" ظلاً ثقيلا رغما عنه وتحوّله إلى متهم بجريمةٍ لم يرتكبها. وتركزت أضواءُ مخابرات عدة دول عربية وصحفها على الفلسطينيين الراقصين في شوارع عمان، والمهرّجين الذين ظهروا في التلفاز العراقي. ولم يتركز الضوءُ على أولئك الذين أدانوا الغزو صراحةً وعلنا لينتهي الأمرُ باغتيالهم ذات ليلة باردة في بيت تونسي على أيـــــدي حرسهم الخاص، ولا تركّز الضوءُ على أولئك الذين حفظـــوا للكلمة الفلسطينية شرفها بعـــــد أن انتهكه دجـــــاجُ العلـــف، ووقفوا مع الإنسان فيهم في زمن اللامعنى، وحاولوا أن يقفوا بوجه الضجيج.
في ديسمبر1990 إذن خرجتُ، وفي نيّتي أن أساهم في فضح اللامعنى والأكاذيب "القومية" ليظل لي أنا "اللاجئ" العريق الذي ذاق مرارة المعزل ومعسكرات الاعتقال والنبذ والاضطهاد، صدقي الذي لا أملك غيره. وحتى لا يقال ذات يوم أن بضعة جهلة امتلكوا المال والسلاح صادروا "الفلسطيني" وسحقوا كل نبضٍ إنساني فيه، وحوّلوه إلى حثالة كما توقع موظفو الخارجية الإسرائيلية.

* * * *

قبل ما يقارب الأربعين عاماً حُشرنا في شاحنات الجيش العراقي المنسحب من "جنين"، وأخذونا شرقاً على هذا الطريق الصحراوي نفسه، والذي سيعبره رجالُ "غسان كنفاني" لاحقاً هاربين من مخيمات شرقي الأردن. هذا هو الطريق نفسه الذي عبرناه أطفالا وكان أمامنا كما أتخيل أفق ما على الأقل؛ أفق الوعد بالعودة بعد شهر أو شهرين. ولكننا كبرنا من دون أن نشعر.
وها أنا أعود على الطريق نفسه بعد ما يقارب الأربعين عاماً، مشرّداً مرة أخرى، ولكن ما أمامي الآن جدار مسدود. لقد أغلق الغزو العراقي للكويت الأفقَ أمام "اللاجئ"، وأكملَ الدائرة التي بدأت على سفوح الكرمل باقتلاع الفلسطينيين من بيوتهم وقراهم وإلقائهم في المعازل والمعسكرات وتحت كل الشموس، بأن جرّدهم من مصداقيتهم، وحوّلهم إلى مجرد "متعاونين" مع احتلال.
هكذا تنتهي الحكايةُ بعد دورةٍ طويلة، تمّ فيها تقويضُ الوضع الفلسطيني في الأردن أولا، ثم في لبنان ثانيا، وأخيرا في الكويت. ولم يبقَ في الدائرة العربية مكان لـ "فلسطين" المقدسة.
قبل عشرين أو ثلاثين سنة كانت "فلسطين" فكرةً مقدسة، رغم أن اللاجئ لم يكن إلاّ نفايةً على هامش المجتمعات العربية، أما بعد الغزو العراقي للكويت، والعبثُ الذي بدأ، فقد سقطت كل قداسة عن لفظة "فلسطين"، وأصبحت ورقةً من السهل أن يقامر بها أيّ مقامرٍ ولا يعترض لعبته أحد. ولم تكن طاولة "أوسلو" إلاّ طاولة مقامرة ممهّدة، وكان المقامرون هذه المرّة يحملون اسم "الفلسطينيين"، ولم يعد هناك فلسطينيون في أجهزة الإعلام سوى هذه العصابة: حفنة تجار ومستثمرين لا تخرج فلسطين في أذهانهم عن حدود فندق سياحي يديرونه ويتقاسمون أرباحه بغض النظر عن موقعه.
الجدارُ المسدود لم يكن هذا فقط، بل الحصيلة العجيبة لأكثر من عشرين سنة من دماء اللاجئين في مخيمات الأردن ولبنان والعراق وفي الكويت. تلك هي ما خلقته وأسسته هذه المنظمات التي لا يعرف سوى الشيطان من أين كانت تأتي بأموالها وإسنادِ كل مخابرات الدنيا لها، من قيمٍ وأخلاقٍ في عقلية الفلسطيني.
كنــتُ أتوقع، وهي المرة الأولى التي أدخل فيها الأراضي الأردنية، أن أجد على الأقل وعيا بهذه المقامرة التي أُلقيت على طاولتها ورقة "فلسطين" بلا أي مبرر (مقامرة الغزو) أو أن أجد تعاطفا على الأقل مع الشعب الكويتي الذي محته دكتاتورية المحتل، أو مع ما يقارب نصف مليون فلسطيني وجدوا أنفسهم في العراء فجأة.
كانت المنظمات الفلسطينية وأحزاب الأردن مشغولةً بمهرجانٍ احتفالي أُطلق عليــه اسم "أسبوع الثقافة الفلسطينية". كانوا يرقصون على المسرح، ويتبادلون التهاني، وبدت لي هذه الرقصات بلا معنى، ولا تعلّقَ لها بما يحدث لنا على الإطلاق.

وأتذكّرُ أن كل مهرجانات هذه المنظمات كانت تقام دائما وببذخ عقب كل كارثة تلمّ بالفلسطينيين، وكنتُ أنظر إليها وكأنها مهرجاناتُ كائناتٍ من كواكب أخرى تصلنا أخبارها وصورها عبر الأقمار الصناعية.
وأذهلني رشاد أبو شاور، وهو أحد هذه الكائنات الفضائية. حدثته عن همّي الأول في إيجادِ مكانٍ لي ولأطفالي بعد أن فقدتُ مكاني في الكويت، والتقيت به بعد أيام فأخذني جانبا وهمس: "هذا أمرٌ لك وحدك.. هذه بطاقة دخول إلى مهرجان الثقافة الفلسطينية" !
كان عرضُ هذا الكاتب، وهو روائي بالمناسبة، هازلاً في تلك اللحظة: أطلبُ مكانا للوقوف عليه، فإذا بهم يمنحونني مقعداً أتفرج منه على مسرح عرفات وهو يرقص في دائرة الضوء! في الحقيقة لم يتجاوز مكان الشعب الفلسطيني أو أي شعبٍ عربي مكان المقعد حتى في أشد لحظات التاريخ "ثورية" بمقياس إعلانات هذا العصر العربي. ولكن.. لا أعتقد أن صاحبي هذا كان هازلا في تلك اللحظة؛ إن محيطه الذهني ومحيط أفراد هذه الكائنات لا يتعدى هذه الدائرة فعلا. فهي دائرةٌ كلّيةُ الوجود بالنسبة لهم. أذكر أن أحدهم، وكان شاعراً هذه المرة يدعى" مريد البرغوثي"

، تعرض للإخراج من دائرة الضوء هذه، فظلّ عاطلا عن كل شئ، حتى عن مضغ الورق، لاعتقاده المضحك أن وجوده خارج هذه الدائرة يساوي العدم. وفي ظل هذا الإعتقاد عاش متنقلا بين الكويت وبغداد يتحين الفرص للعودة.. حتى عاد.. وعاد إلى مضغ الورق. وأذكرُ أنني حين حدثته في لقاء عابر خلال مروره بأزمته الوجودية هذه عن أن الإنسان الحق، أو الشاعر الحق، لا يعلّق معنى وجوده على هذه المنظمة أو تلك بل على رؤيته هو وعلى جوهره الإنساني، ويمكنه أن يحيا خارج هذه المنظومات، سكتَ ولم يجب إلاّ أنه أجاب بعد زمن وفي مكان آخر وأمام آخرين، وكان جوابه أن " محمد الأسعد" عدميٌّ لا يُطاق !.

وجاءت بعد ذلك مفاجآت هذا العالم العجيب الذي كان عاجزاً عن اكتشاف أن الأسماء ترتبط بمسميات، فتعلّم، سواء في ظل الملك الذي أعتاد أزهريٌّ تدبيج رغوةَخطاباته له أم في ظل جهلة المنظمات الفلسطينية، أن يطلق على الأشياءِ أسماءً من عنده حسب الرغبة والهوى. فالأشياءُ لا تَمنح العالمَ مسمياته، بقدر ما أن مسماها يأتي من هذا العالم العجيب. وهكذا تغيب كل حقيقة واقعية وملموسة. ألا نشاهد أن أضخم قيادي عربي لا قدرةَ له على تمييز الرأي من "الواقعة"؟.

هكذا تحول العالم إلى أشياء وظواهر من السهل العبث بها، وتحوير أسمائها ومدلولاتها. يقول أحدهم مثلا تعليقا على الغزو العراقي: "إن ضمَّ دولةٍ إسلامية إلى دولةٍ إسلامية أمر شرعي". فأقول له، لنحدّد أولا علاقة الدال بالمدلول؛ فهل ما يحدث من غزو وانتهاك وسلب يمكن أن نسميه ضمّا ؟ أم أن التسمية الصحيحة هي "الغزو"؟ وثانيا، من أين تسنّى لكَ أن تطلق على "دولة" البعث اسم "دولة إسلامية"؟ هي دولة قبيلة أو عائلة بالأحرى، ولا تعلق لها بالإسلام من قريب أو بعيد.. مقدماتكَ مضلّلة تعمدا ونتائجك التي تصل إليها قائمة سلفا. أنت تسمي الأشياءَ كما يشاء لك الهوى.

ربما كانت هذه هي مأساة التفكير العربي الراهن بشتى تياراته: إنه لا يحترم الواقع الملموس ولا يقيم له وزنا، أو أنه لم يكتشفه بعد .

IX

ثلجُ " صوفيا" الجميل.. وهذه التماثيل المعتمة، نصف المقلوبة ونصف العالقة على قواعدها، كل هذا ذكّرني بأحلامنا التي مضينا وراءها والأسماء التي كنا نصادفها على صفحات الكتب والخرائط، فكّنا نرحل دامعين على صفحاتها.

كان "محمد الماغوط" يغفو في الخمسينات على خرائط العالم في مكتبة عامة "ودموعه تجري من قارة إلى قارة"، وكنا صغارا آنذاك نصحو على ضجيج القومية العربية، فكانت دموعنا أقلَّ طموحا: كانت تجري من عاصمة عربية إلى أخرى.

وهـا هو ثلجُ "صوفيا" أخيراً، وهذا هو الصباح الأول الذي يوحي بالأمان، فقط لأن شرطيّ المطار لم يهتم كثيرا بوثيقةِ اللاجئ التي أحملها، وإن حرص على أن يسجل بدقـة في مكان الجنسيةِ لفظة "بلا جنسية"، أي "بدون" بالمصطلح العربي الشائع. وسيجعل ضباطُ الهجرة في دفتر الإقامـة مكان ميلادي"إسرائيل" بدل "فلسطين". شيء تقتضيه المعاصرة والحداثة ربما.

كنتُ أفضّل بالطبع أن يظل مكان ميلادي كما كان بالفعل "فلسطين" إلاّ أنني تذكرت أن هذا الاسم لم يعد موجودا إلاّ فـي عددٍ يتناقص من المطبوعات العربية، وفي وثائق الاحتلال البريطاني، والتوراة، بالإضافة إلى مسكننا الشهير في "البصرة"، وانه سيستخدم من الآن فصاعداً لتحديد مكان فنادق ومنتجعات وسجون السلطة الفلسطينية، وهذا الأمر الأخير زاد من نفوري إلى حد كبير.

كان الطفلان مرحين وهما يتراكضان تحت الثلج الهابط خفيفاً أبيضَ شبيه القطن والريش، يحمل كل واحد منهما الاسم الذي منحته له: غسان الذي قيل لي منذ البداية أنه اسم "علماني" أي أنه لا يشير إلى دينٍ محدّد، مع أن اختياري جاء لسبب دلالي؛ ألغسان هو حبة القلب، وهو الجد القديم لغساسنة الشام، اذن هو اسم يولّد معناه باختلافه عن أسماء بضعة قبائل خشنة ومتوحشة ضمن حقله الدلالي، وباختلافه عن أصوات بضعة ألفاظ مجاورة مثل قحطان وعدنان.. وكل الألفاظ التي تحمل معاني الجفاف والنأي. وأناهيد.. تلك المعبودة الوثنية الأرمنية مـرّة والفارسية مرّة، ثم العربية، وأخيرا هذه الطفلة الجديرة بثقل كل هذه الحضارات.

وفكرتُ أنهما وجدا أخيراً بلداً لا يصمهما بوصمة "اللاجـيء" بل باللفظـة البسيطة الغامضة: "بلا جنسيـة" أو بمعنى آخر، اللفظـة التي تحكم عليك بالحرية دفعة واحـدة، وعليـكَ، تماماً مثلما أراد العم "سارتر" الذي كان حَوَلُ عينه اليسار يبدو لي غير ملائم لفيلسوف، أن تجد ماهيتك.

* * * *

قبل يومين من هـــذا اللقـــاءِ بحريـــةٍ كونكَ "لا شيئ" أو إنكَ لم تعد "شيئا"، وقفتُ مع هذين الطفلين وأمّهما الأردنية الجنسية في مطار عمّان ذات فجرٍ غائم والمطرُ يتساقط فيزيد الفجرَ سواداً متجهين إلى "صوفيا" وبي شكٌ أن أستطيع الدخول أو العودة.

قـــال الصديقُ "خيري منصور" ونحن نسير في أحد شوارع عمان على غير هدى:

"هذه حالة غير معقولة.. أن لا تعرفَ أين تذهب.."

وفكّرَ قليلاً، ثم فكّرَ.. وعاد ليقول بثقـة :

"لا تقلق.. سأروي هذه القصة على مسامع الملك.. ولن يمضِ شهرٌ حتى يكون الجوازُ في جيبك"

كان" خيري" يحتفظ بصورةٍ على مكتبه اُلتقطت في مناسبةٍ يظهر فيها مبتسماً وهو يصافح الملك، ولعله اعتبر هذه المصافحة العابرة ضماناً كافياً يؤمن الفوزَ بالرضا الملكي.

كانت زيارة عمان قد انتهت. هي ستةُ أشهرٍ غير قابلة للتجديد، وعليكَ أن تغادر، أنتَ وزوجتك وأطفالك، وتمرّ في طريقكَ إلى المطار بصور الملك المبتسم دائما على ناصية هذا الشارع أو وسط تلك الساحة، ولكن بلا ذلك الجواز الموعود.

تساءل وزيرُ الداخلية الأردني "جودت سبول" حين طلب منه أحدهم إذنَ إقامةٍ لفلسطيني:

"هل تريدني أن أسمح بإقامةٍ لمن يأتي ليشاركني كوبَ الماء الذي أشربه!"

وقال موظفٌ في وزارته لزوجتي حين طلبت إقامة لأطفالها على الأقل:

" أتريدون أن تحدثوا مجاعة في البلد ؟"

أما مدير مكتب رئيس الوزراء، فكتب على هامش طلبِ الإقامـةِ الذي قدّمتُـه: "المطلوب سيرة ذاتية.. وإعـــلان ولاء ..و..."

ولـم أكمـل القراءة.

المفارقةُ في مضاربِ هذه القبيلة التي ما تزال تعيش بمفاهيم الكلأ والماء هي أنك تجد أصحابها يستخدمون كلماتٍ ضخمة وعجيبة، فهنا وليٌّ للعهدِ في دولةٍ تميّز تمييزاً عنصريا بين المرأة والرجل يقيم منتدى للفكر العربي، ويجمع بين فترة وأخرى قطيعاً من منتجعي الكلأ ليتحدثوا في شؤون الحضارة والمعاصرة والقيم الإنسانية.. !

لا أدري أن كان هذا الشخص الذي يلبس لباسَ رجل "الحضارة"، يعرف أن مواطناً في "بوتسوانا" يدعى "يونيتي دو" رفع دعوى ضد القانون الذي يميز بين الرجل والمرأة في بلده ويحرم المرأة المتزوجة من أجنبي من حق منح جنسيتها لأطفالها، أو أن يقيموا معها في بلدها، فتقرّر المحكمةُ في يونيو 1992 عدم دستورية هذا القانون لإنه يميّز بين المواطنين بسبب الجنس، أو يدري رجل "الحضارة" هذا أن لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة تحظر التمييز العنصـري بسـبب الجنس حتى لـو لم تنص على حظره الدساتير الوطنية؟

ثم هل يمكن أن يصاب بالكآبة لو علم أن سلطاتُ الأحوال المدنية ووزارة والخارجية في بلده أعطتني وهي مبتهجة كتاباً رسمياً يقول أن حكومة جلالة الملك لا تمنح أطفال الأردنية المتزوجة من أجنبي لا الجنسية ولا الإقامة حتى؟

*   *   *   *

كان مبنى المفوضية العليا للاجئين يقع في مكان ما من "الشميساني" التي يبعث اسمها الانشراحَ في النفس، بعكس "النزهة" و "الجوفة" اللذين يبعث اسمهما الانقباض، رغم أن الفرق بين سكان هذه التلال الصخرية التي يسمونها بمعاييرهم الصغيرة جبالا، هو الفرق بين حلزون شتوي تجده لزجاً متشبثا بالصخور لا يجرؤ على الحركة إلاّ من وراء ظهركَ وبحذر، وبين حلزون صيفي تجده مبتهجاً ولامعا في الشوارع أو يتناول طعامـــه في مطعم "جبري" أو يشـرب القهـــوة فـــي مقهى "الفاروقي". ومع ذلك، هناك أمرٌ مشترك، وهو انكَ لا تستطيع مخاطبة كلا النوعين من الحلزون، سواء أكان لزجا أم مصقولا لامعاً، فالعداءُ الموجّه إلى الآخر لمجرد أنه "آخر" يبدو هنا امتيازا تعتز به هذه الكائنات.

وفكّرتُ أنني سأجدُ من أخاطبه في المفوضية العليا وهي قابعـــة في منحدرٍ تعلن عن نفسها بعلمها الأزرق المريح. وهناك ومن وراء سورها الحديدي المرتفع شرحتُ لموظفٍ ما باختصار كيف أنني لا أملكُ مكاناً أقف عليه، فلا الأردن يسمع لي بالإقامـــة، ولا أي بلد مستعد لمنحي حتى تأشيرة زيارة أو مرور، وأي طائرة لا تستطيع أن تقل"لاجئا" بلا جنسية.

قال الصديق "إبراهيم زعرور وهو يجمع حوله أطراف عباءته متربعا فبدا شبيها بحلزون حقاً:

"إذن أنا بجوازي الأردني أعيشُ في نعمةٍ من دون أن أدري"

وتطلّعتُ إلى المنحدرات الثلجية التي يطلُّ عليها بيته الدافئ، ولم أجد جوابا.

واقترح عليّ الموظفُ كتابةَ تقريرٍ مفصل وتقديمه لينظر فيه المديرُ، ففعلتُ في اليوم التالي، وجلستُ أكتب تقريري عن ما يقارب الأربعين عاماً من العزلةِ في زاويةٍ سمح لي الموظف باحتلالها، ثم تناول أوراقي ووعدَ بأن يتصل بي بعد يومين.. أو ثلاثة.. أو أسبوع.

يقول كاتب فلسطيني:

" يُفترض نظرياً، أن المنظومة الحقوقية المقررة للاجئين عموما تنطبق على الحالة الفلسطينية، غير أن الممارسة والواقع الفعلي أبرزا أن لهذه الحالة وضعاً خاصاً.. فاللاجئون الفلسطينيون مستثنون مثلا من حماية المفوضية العليا للاّجئين التابعة للأمم المتحدة التي تأسست في العام 1950 بسبب ما وُصف بالطابع السياسي لقضيتهم، والذي لا ينسجم مع المهمات غير السياسية لهذه المفوضية طبقا لميثاقها، كما أن هذه المفوضية تتذرع بإمكان نشوء ازدواج مع أعمــــال هيئـــة "الأونروا" التابعة للامم المتحدة، مـــع أن الأخيرة.. لا تشـــمل اللاجئين بحمايتهـــا، علـــى اعتبار أنهـــا وكالـــة إعانـــة وغـــوث، بــــل ولا تفـــرد جنـــاح إغاثتها على كلّ اللاجئين" (الحياة - 1996/1/10).

وكان عليّ أنا الوحيد ربما التحقّقَ من صحـــةِ هذا الكلام قبل نشره بأربع سنوات. فبعد انتظارٍ امتدَّ طوال أسبوعين، لم تتصل بي المفوضيـــة العليا، بل اتصل موظفٌ إيطالي من "الأونروا" قدم نفسه على أنه "أنطونيو بروسا"، فعجبت للأمر لأنني أعرف أننا نحن أفـــراد القبيلة التي ضاعت في العـــراق، وزجّوا بها في "التوراة" وسحقوا لسانها، غير مسجلين في سجلات الأونروا.

قال لي "بروسا":

"آسفون .. لا نستطيع أن نفعل شيئا من أجلك أو من أجل عائلتك.."

قلت : ".. ولكنني قدمتُ أوراقي إلى المفوضية العليا وليس لكم"

فوافق :

"هذا صحيح، ولكنهم حوّلـوا الأوراق إلينا.. وبما أنك غير مسجل لدينا.. لا نستطيع شيئا.. على أي حال.. أعددتُ لكَ كتاباً بتوقيع مدير الأونروا الإقليمي السيد "براون".. وسيساعدك هذا الكتاب".

وقرأتُ بالإنكليزية الكتاب الذي وجّهته "الأونروا" إلى من يهمه الأمرُ".. سنثمن عاليا كل مساعدة تقدمونها إلى السيد الفلاني وعائلته.. إنه لا يستطيع الإقامة في عمان، ولا يستطيع السفر إلى أي بلد.. فنرجو مساعدته"!

وســـألتُ الإيطالي:
"أتعتقد أن لهذا الكتاب جدوى، ولمن تقترح أن أقدمه؟"
قال:
" تستطيع أن تقدمه إلى السفارات الغربية.. وسيساعدونك لانهم يحترمون السيد براون"
كان عليَّ إذن أن أستكشف "من يهمّه الأمرُ" في السفارات الغربية؛ من يهمه أمرُ أنني لاجئ لا يستطيع العودة إلى العراق لأنه أحرق سفنه معه منذ أن شرّده من الكويت، ولا يستطيع البقاء في عمان لأن وزير داخليتها يخشى أن يقاسمه كوب الماء، ولا يستطيع العودة إلى الكويت لأنها أغلقت أبوابها دون الفلسطيني، ولا يستطيع السفر إلى أي بلد.. لأنه بلا جنسية!

كان الإيطالي لطيفاً، ولم ينسَ أن يرثي لحالي قليلا، وكذلك كان موظف السفارة السويدية.. والكندية.. والأمريكية.. الخ.. كلهم لا ينسون الابتسام وقول "آسف" على الأقل.

وهكذا كان لابدّ من الخروج من "عمان" التي تروي أساطيرُ البسطاء من أهلها أن ملكها لا يرفض طلبَ من يستطيع أن يصل إلى بوابة القصر ويربط شريط قماش أخضر.. أو أحمر في قضبانها، تماماً مثلما فعل جدُّه الذي سقط قتيلا في "الأقصى" حين تشبث بحزامه"الياهو ساسون" الذي علّموه أن من يتمكن من مغافلة الملك والإمساك بحزامه، لن يردّ له طلباً. وهكذا كان؛ أمسك " ساسون " بحزام الملك البطين في أحد اجتماعاتهما السرّية بحضور"ديان".. و"التل"، فرفع الملك يديه وقال"اطلب ...المستطاع"، فطلب "ساسون" حسب رواية "توم سيجف" إطلاقَ سراح رجالٍ من عصابة الهاغاناه، وترحيل عدد من العائلات اليهوديـــة من القدس الشرقية. ونُفذت رغبـــةُ الذي استجار بالحزام!

أما أنا، اللاجئ الفلسطيني، فأفضّل أن أذهب إلى الجحيم بالطبع على أن أربط شريطا في سياج قصرٍ أو أمسك بحزام ملك بطين كما يريد منّا هذا التاريخ وتقاليده السفيهة في بلد الحلزون الصحراوي.

*   *   *   *

ها أنا في صوفيا إذن بعد ليلةٍ من الهواجس التي كنتُ فيها كأنني على طرف العالم ضائعاً لا أدري أين سأقف، تراودني صورةُ ذلك اللاجئ الذي ظل معلّقا بين المطاراتِ طوال ستة أشهر من دون أن تسمح له دولة بالدخول إثر اجتياح لبنان وحلول الغضبِ على الفلسطينيين حاملي الوثيقة اللبنانية. وخطر ببالي ذلك السنغالي المقيم كما يقال في مطار "أورلي" في باريس، فلا هو قادر على الدخول، ولا هو قادر على الرجوع، إلى أن تحوّلَ إلى أحدى علاماتِ المطار الطريفة التي يحرص الذين يعرفون طرفاً من حكايته على المرور بها ولمس "السنغالي" للتأكد من إن ثمـة إنسانا نادراً على سطح الكرة الأرضية يعيش مثل هذه الوضعية العجيبة، وليتنهد العابرون شاكرين أنهم آمنون في جوازات سفرهم.

منذ أن أُبعدتُ عن قبرص، كنتُ أتوقع مصيراً مثل هذا، ولهذا كنتُ دائماً أحرصُ على أن أحمل معي كميةً كافيةً من الأوراق وبضعة كتب وأغطية لطفلي وزوجتي ومعطفا ثقيلا جاءنا بالبريد ذات يوم من ألمانيا بالصدفة. كل هذا كان يكفـــي في اعتقادي لتأثيث الوجود في"ترانزيت" أي مطارٍ نضطر للبقاء فيه أشهراً وربما سنوات. وكنتُ أشعر بالاطمئنان بفضلِ تطور التقنية، لأنني أستطيع الاتصالَ بالعالم من أي "ترانزيت"، بل وإرسالَ مقالاتي، وممارسة

َحياتي اليومية، من دون إخلالٍ بأمن المطار، ومن دون أن أسبِّب قلقا لمطاراتٍ أخرى مغلقة، فلا أحد مستعد لحمل "لاجئ" لا يملك جواز سفر، أو يحمل "جنسية غير مؤكدة " على حد تعبير ضابط الهجرة القبرصي الذي خطر له أنني قد أنتهز غفلة منه وأهرب فظل يلازمني وأطفالي حتى باب الطائرة.

مهما يكن الأمر، فأن التنقل من مطار إلى مطار، أي على هوامش العالم، ورؤية عيون المسافرين السعداء التي تحدق بكَ وأنتَ محاط برجال البوليس، غير مبالين أو فضوليين أو مندهشين، سيكون أمراً طريفاً.

أن تكون لا "شيء" أفضل أحيانا من أن تكون "شيئا" مقررا سلفا. في حالة اللا "شيء" لا يستطيع أحد نبذكَ لأنه لا يوجد فيك ما ُينبذ، أو لا يستطيع أحد جرحكَ ، تماما مثل ذلك القديس الهندي "برابهو" الذي شفّ وشفَّ حتى أصبح من المحال أن يُضرب بالسيف، لأن السيف كان يهسُّ، ويخترقه.. كأنما يخترق فضاء خاويا.

هذه الدقة البلغارية اللطيفة في وضع إشارة "بلا جنسية" تشبه إدخالكَ في حالة وجودية تكون فيها سيدَّ ما ستكون عليه.

وسأجدُ في صوفيا بعد ذلك كم هو مملٌّ وثقيلٌ أن تكون "شيئاً" في شخصياتِ عددٍ ممن عرفتُ هناك، وبعضهم أصدقاء قدماء جاءت بهم الطائرات. ما يُثقل هؤلاء الناس هو أنهم عاجزون عن لمس الثلج الأبيض، أو رؤية التماثيل القديمة، أو السير تحت المطر، بسبب فكرة الوطن الثقيلة ثقلَ الرصاص في أعماقهم. أنها هناك في قاع الشخصية.

كنا ونحن صغارا نعجب لتلك الدمية البلاستيكية التي كيفما وضعتها ما تلبث أن تقف، وكنا نسميها "شيخ ما ينام".. ولكن العجب سرعان ما ينتهي حين نكتشف قطعة الرصاص الملتصقة بقاع الدمية من الداخل.

الثقيلُ هو من لم يمرّ بالخلاص الذي مررتُ به حين أصبحتُ الوحيدَ الذي لا مكان له. الوحيدَ الذي عليه أن لا ينتظر شيئا من هذا العالم.

أحد قرائي من قرية "باقة الغربية" أرسلَ لي رسالةً ذات يوم، وكنتُ يومها في السجن البريطاني القبرصي القديم، بدأها بقوله: "أيها المقيم بلا إقامة". لم يكن يعلم بالطبع أنني سأقرأ كلماته هذه في زنزانة تمتلئ جدرانها بتمنيات من سبقوني إليها، بعضهم يكتب" ها أنا عائد يا بلدي الحبيب"، وبعضهم يكتب بأخطاء إملائية " لن يبقى فلسطيني واحد في لبنان"، وبعضهم يكتب عنوانه في بنغلادش طالبا مراسلته وآخرون .. وآخرون، رغم كل تعاستهم في تلك اللحظات، كان لهم مكانٌ محدّدٌ على سطح الكرة الأرضية يعودون إليه.. على الأقل.. ولم يكن لي أيَّ مكان.

X

سيتذكر اللاجئون فيما بعد أن عدداً من يهود بلادنا القدماء في فلسطين كان يحدثهم عن أشراط الشدتات، فيقول أنهم سيتغلبون عليهم الآن، وسيخرجونهم من فلسطين كما تقول الكتب القديمة، إلاّ أن الفلسطينيين سيعودون في النهايـة ويتغلبون.

ربما كانت هذه الروايةُ نوعاً من السرد الذي تبتكره الشعوب المغلوبة لتتغلب على جوائح الإبادة، بأن تخلق لها شبكةَ حياةٍ خاصة بها؛ وسائلَ عيشٍ وموتٍ، حنيةً في جدار، أو ما يُسمى بالإنجليزية Niche ، توفر لها استمرارية التناسل وتغيير طرق حياتها الإنسانية كما يقول علماء الإيكولوجيا. وبهذا النوع من المكان، يتحدّد وجودُ اللاجئ ومصيره بالاختلاف عن غيره. إنه يجد معناه مكانيا بالاختلاف الحاضر في الذهن دائما بين "المخيم" و"المعزل" و "التوراة" وشتى المسميات وبين "فلسطين".

هذا على صعيد دلالة الوجود، أما على صعيد الصوت، أو صوت الخطاب، فتجد المعنى أو هذا هو المفترض، باختلاف الرواية عن الروايات الشائعة في الخضم: رواية القومية العربية أو الصراع الطبقي، أو الصراع الديني.. الخ.

الإصرارُ على أن لنا روايتنا الخاصة ومصيرنا الخاص، ربما كان من العناصر التي ساعدت اليهود على الإمساك بمعناهم في شتى الإيكولوجيات. وليس إصرارَ "اللاجئ" وحربه الدائمة لبناء معناه الخاص وسط المعازل العربية حتى أكثرها بذخا، إلا جانباً من جوانب هذا المسعى الإنساني نفسه.

يقول لي الخالُ الذي وجده الإحتلالُ الإسرائيلي عجوزاً مهدمـا في أحد مخيمات الضفة الغربية في العام 1967، أن الضابط الإسرائيلي استدعاه بعد أيام بالاسم. وفي غرفة تعج بالعسكريين، قال له بهدوء: "نحن نعرف ما كنتَ عليه في الماضي" ويعني حمله السـلاح في العام 1936 "ولكن ذلك أمرٌ انتهى الآن، ما نريده حاليا هو أن تبيعنا أرضك في أم الزينات (قرية من قرى الكرمل) فنحن نعرف أن لك أرضاً واسعة هناك"

وهـزّ الخالُ الذي هُزمت بندقيته العثمانية رأسه شاعراً بالانتصار ِلأول مرة منذ سنوات طويلة، ورفض قائلا:

" أنتم تحتلون الأرض فما حاجتكم لشرائها؟"

لم يجب الضابط الإسرائيلي على السؤال وتجاهله وتمتم:

"أنتَ ما حاجتكَ إليها الآن، نحن نحتلها، وأنتَ لا تملك من الأرض شيئـا.. فلماذا لاتبيع؟"

وحاول العسكريون من حوله تقديمَ حججٍ أخرى. كان إلحاحهم عجيبا على الأقل بالنسبة للخالِ الذي فوجئ بانتصاره. وهل تتوقع من منتصرٍ أن يتنازل عن معناه؟

ليس من المعروف كيف فكّرَ ذلك الضابط ولا كيف يُفكر الآن إن ظلّ حيّاَ، والأرجح أنه مازال مندهشاً ربما من هذا العجوز الذي رفض أن يبيع أرضا لم يعـد "يملكها" الآن، ولا أمـل له فـي "امتلاكها"، إلاّ أن الأمرَ المؤكد هو أن هذا الضابط لم يدرك أنه ردَّ إلى اللاجئ انتصارَه الذي حرمته من الإحساس به طوال تسعة عشر عاما أكياسُ وكالة الغوث وأحذيةُ جنود البادية ولفظةُ "اللاجئ" المهينة التي طاردته كما اللعنة: ردَّ إليه معناه الإنساني بالاحرى.

* * * *

في عمّان الآن كما يقال ينسلُّ عددٌ من اللاجئين إلى السفارة البريطانية للحصول على إثباتات ووثائق ملكية الأراضي التي نقلتها بريطانيا إلى قبرص غداة انسحاب جيوشها من فلسطين. ويُشاع أن بعضا منهم بعد أن يحصل على وثيقة الملكية أو شهادة عنها يذهب لبيعها ليهود أو لغيرهم، وحجّته في ذلك أن كل شيء انتهى الآن، فما معنى حرمان النفس من ثروةٍ شبه مجمدة؟

ويبدو أن حمّى البيع هذه أصبحت دوّامةً أطلقتها أخبارُ "القادة" أصحاب طاولة المقامرة في "اوسلو" والقائلة بأن سعيهم الآن مركّزٌ ومحمومٌ على شراء أماكن استراتيجية، تصلح لإقامةِ فنادق سياحية ومجمّعاتٍ تجارية في مناطق الحكم الذاتي. أحد أصحاب الأراضي المهجورة هناك قال لي أن أحد كبار رجال أعمالهم الذي شارك في البصم على صفقة اوسلو جاء يفاوضه هو وأشقاءَه لشراءِعقارٍ لهم في قرية "أبو ديس" القريبة من القدس ذي مكان مهم. فطلب هذا منه إجراءَ مقايضـــةٍ؛ أن تتنازل لهم منظمته الثرية عن أحد أملاكها التجارية في الكويت، ويتنازلون من جانبهم عن العقار. ولم يتردّد رجلُ الأعمال بالطبع.

لا أشكُّ أن الضابط الإسرائيلي ذاك الذي اصطدم باللاجئ المنتصر في مخيم العام 1967، ستنفرج أساريره الآن وهو يجد هذه الكائنات التي فقدت الإحساسَ بالاختلاف بين النصر والهزيمة، بين اليوم والغد، بين المعنى واللا معنى، تهرع لتمنح احتلاله معناه المفقود منــذ أكثر مـــن أربعين سنة: النصر!

*　*　*　*

أصحابُ أسطورة الشتات والعودة في ما بعد، ومن دون أن يقرأوا الكتب القديمة، وأنا منهم، سيحتفظون بانتصارهم من أجل أطفالهم. من أجل طفلةٍ رائعة اسمها "أناهيد" (أرمني وفارسي وعربي وما شئتَ من حضارات) وقفت وهي ذات السنوات العشر، أمام مدرسة اللغة الفرنسية لتقول لها "آسفة يا أستاذتي.. ولكن هذه ليست إسرائيل.. بل فلسطين في التاريخ كله" وكانت تشير بذلك إلى خارطة موضع الدرس.

لا أعتقد أن كلَّ من يذهب إلى السفارة البريطانية في عمّان للحصول على وثيقة ملكية أرضه ينوي بيعها لأحد السماسرة المنتشرين الآن والمتغلغلين في مخيمات اللاجئين. ربما كانت هذه نية البعض كما هي نية اللاجئين في لبنان الذين اشتروا، كما يشاع على سبيل التندر، آلاتٍ حاسبة ليحسبوا بالضبط كم يستحقون من تعويضات حين يأتي وقتُ فتح الدفاتر وهو آت ولا ريب، إلاّ إن الذين يدركون جيّداً أنهم مازالوا المنتصرين رغم تهافت سماسرة "أوسلو" وسطوة العسكريين الإسرائيليين المحتلين، ليس من السهل أن يتنازلوا عن انتصارهم.

لقد علّمت الخطاباتُ المبتذلةُ والناقصةُ أن الانتصارَ مرتهن بالسيطرة على موقع، وإقامةِ حرسٍ في قرية، أو تنظيم حفلة تهريج في غزة أو أريحا، ولم تعلّم أن الانتصار هو الاستعصاءُ على التشويه الداخلي، على اقتلاع فكرة "الوطن" من داخل الإنسان. والحق أن أسوء ما في صفقة "أوسلو" وأردأ ما في هذا الابتذال المسمى الحكم الذاتي، ليس الاعتراف بان الساحل الفلسطيني هو "إسرائيل" أو مصافحة المحتل بابتسامة عريضة تكاد تشق وجه الانتهازي والسمسار، أو إقامة مشاريع مالية وأمنية مشتركة مع المحتلين فقط، بل هو في محاولة هؤلاء اقتلاع فكرة "الوطن" الفلسطيني من أعماق الفلسطيني.

قال لي صديق من المحاربين القدماء تحوّل إلى المتاجرة بأدوات التجميل في شوارع صوفيا عن سبب تحوله، أنهم كانوا جعلوا مني ومن بضعة زملاء في الجامعة قواتِ تدخلٍ سريع، فيوما تعالوا إلى لبنان لأن المعركة مع الإمبريالية أصبحت حاسمة، ويوما تعالوا لنحرِّر الجبل، ويوما تعالوا لأن الظرف حاسم. وكانت قمّة الجبل هي الحاسمة. فقلتُ لهم أخيرا: "أنا لم أتدرب وانضم إلى صفوف الثورة لتحرير الجبل وغيره أو كل ما يخطر ببالكم ..أعرف أنني فعلتُ هذا من أجل فلسطين". وكان هذا فراقاً بيني وبينهم.

هذا إنسانٌ اقتلعوا من أعماقه فكرةَ الوطن أو جعلوها غائمة مبكراً حين كان "اللاجئ" موظفا لخدماتٍ لا ندري أي شيطانٍ كان يهمس بها، فحوّلوه إلى "يساري" مهمته تغيير العالم، أو "قومي" يعيد إلى أمّة "زكي الأرسوزي" الغائبة جوهرها المفقود، أو"مسلم" يجب أن يستعد ليفتح "موسكو" وأخيراً إلى شرطي يهوى بالهراوة على رأس أم فلسطينية في قرية بالية من قرى الضفة الغربية.

*   *   *   *

سيتذكّر اللاجئون دائماً قصص عجائز يهود بلادنا التي تقول لهم إنهم سيتغلبون عليهم الآن (كان ذلك في الثلاثينات) إلاّ أن الفلسطينيين سيعودون ويتغلبون. ربما كانت هذه القصص، ويا للمفارقة، هي التي حفظت للاجئ معناه وانتصاره، لا خطابات منظماته وأثواب أيديولوجياتها المرقعة من كل ما هبّ ودبّ من أفكار. وربما كانت هذه القصص هي التي جعلته يتجاوز اليوم إلى الغد وما بعده، في تماسكٍ ايكولوجي يستعصي على الإبادة والإنقراض. وحين نعرف أن تعداد الفلسطينيين الآن يقارب الثلاثة ملايين نسمة في فلسطين وحدها، والخمسة تقديراً خارجها، ندرك مدى اليأس الذي كان يخيم على ذهنية ذلك الضابط وهو يطلب من الخال شراءَ أرضهِ المحتلة منذ العام 1948، وندرك مدى الابتذال الذي يغرق فيه سماسرة الحكم الذاتي وهم يضعون أنفسهم في خدمة الصهيونية التي تواجه القرن الحادي والعشرين وهي لا تعرف ما تفعل بترسانتها النووية وطائراتها وصواريخها أمام الفلسطينيين الذين عادوا بالفعل كما تنبأت الكتبُ اليهودية، فاذا هم تضجّ بهم تضاريسُ فلسطين.. ليس بسبب ما يزعمه شعراءُ وكتبةُ السماسرة المبتذلين.. بل بسبب قوانين الايكولوجيا وحدها.

1996